الدكتور عبد الستار الراوي

الكرخ قمر بغداد

(سيرة حارة شعبية)

الاهداء

إلى أمي مليكة حمادي

و

إلى ذكرى دربونة زنكوّْ

لوحة التنوير الأولى

عبد الستار الراوي

القاهرة–شتاء ٢٠٠٧

مقدمة

-١-

الطفولة وحدها أنشأت الحرية . وبعقلها الفطري استحدثت مكاناً لا متناهياً وأزمنة بلا بداية ، وبلا حدود .

وبفضل أشواقها المعرفية تخطت الرتابة ، وتمردت على التكرار، لتؤلف تجلياتها المبدعة فصلاً خامساً للطبيعة هو (الخلود) ، عبر هوّس اللعب وشجاعة الأسئلة، وجنون الإنشراح . وطبقاً لهذا المنطق التأويلي الذي يتجاوز العادات الشائعة ، فأنها قد تضغط المسافة بين (نعم) و (لا) ، فتضفي على الإيجاب والسلب صفة ثالثة. هي المماثلة ورفض (التمييز) ، خيالاً مبدعا. يجعل الأنهار مرتفعة كالجبال ،والنجوم في متناول اليد، والسماوات واطئة كالأرض. ومركز العالم في (تلقائية الفعل) ، وليس في شمال أو جنوب كوكب الأرض .

- ٢ -

وعندما تتأمل الطفولة ظواهر الحياة من حولها ، وتصاب بالدهشة. فأنها أصدق الكائنات إخلاصاً في البحث عن الحقيقة. قد تصغي إلى المشهورات وبديهيات الآباء والأمهات ، وقد ينغمر عقلها في سعة التبرير اليومي المريح ، لكنها في صفحة البرهان الأعلى تغادر أو تتخلى عن هذه الجوابات ، فتذهب بتأملاتها وأحلامها إلى ما وراء هذه المقررات السريعة الجاهزة .

إذْ يرتقي وعيّها إلى مقام الأسئلة تواقة إلى (تعليل) ، بعد أن ضاقت منظومة الحواس بتسويات المماثلة والتبرير .

فتحاول أن تسابق عمرها في مغامرة البحث ، وجحيم الأستقصاء.؟!

- ٣ -

عاد الصبّي من نهر الموت يسأل أمه عن الرحيل الأبدي ، والسرّ في قوة مياه خضر إلياس التي إبتلعت على الفور (الفتى الغريب) ، فأنزلته إلى قاع الشط.

صراع آخر بين السببية الإنسانية والعلّية الكونية بين الفعل الحرّ ونازلة الموت ؟! .

نسبية المعرفة وحتمية المصير. وحقيقة الانتهاء : مفارقة وجودية بالغة الإيلام في قانون الطبيعة الباردة ، تنتج تجربة (القتل) الوحشية .

تستحيل واقعة خضر إلياس في وجدان الصبّي إلى فجيعة تشق جلدة الأرض ، وتسقط هيبة الكون .

فتوقظ جذر الـــ (ماذا) ؟!

إزاء تبادلية الحياة والموت ، يهوى العقل بين قبضة قلق الوجود المرّ . ليس ثمة من خلاص . إذ لا ديمومة قائمة أو حياة مقيمة ، بل صيرورة بلا انتهاء!

- ٤ -

الطبيعة في وعيّ الصبيّ ، تعني اللعب الحرّ في الكون الفسيح. تبدأ خارطة الأرض بـــ (دربونة زنكو) ، وأطراف الفحامة وما وراءها من فضاءات طليقة : الجيّلية، الرحمانية، المشاهدة ، الشيخ علي ، الشيخ معروف الفلاحات بين هناك ينتهي كوكب الطفولة، ويلملم العالم حدوده عند جسر الشهداء، قبل ان يأتينا نبأ (الضفة الأخرى) من النهر ، فقد سمعنا كلاماً يدور على أَلسنّة فتيان الدربونة، بأن عالماً مجهولاً يقع وراء الجسر، في الضفة الأخرى من حوض دجلة ، وهو أكبر سعة ، وأعظم عدداً ، وأبهى جمالاً، من عالمنا الكرخي ، هكذا كان شأن (الصوب الكبير) قبل أن يكتشف الصبيّ : (الرصافة) ويحيط علماً بأسرار (الباب الشرجي) و (حدائق غازي) ، و(بارك السعدون) فأدرك بأن الطبيعة لا حدود لها في المسافة والزمن .

- ٥ -

المكان والزمان يتحدان ، يصيران حركة ، وجوداً متعّيناً ، كل جزئية منه تنتمي إلينا، وتنضم إلى ذاكرتنا : الدربونة البهية ، و(الطرف) المفعم بالبهجة ، فضاءات الفحامة ، ودنيا الكرخ ، ليس ثمة من شذرة سائبة ، أو لحظة غائبة ، أو ذكرى عائمة ، فلكل واحدة منها كياناً ، رسماً ، دلالة ، رمزاً جذراً عميقاً يمتد إلى الأفئدة والعقول.

- ٦ -

تتكثف تفاصيل الطفولة كما لو أن كل خليّة منها ، تعادل دورة حياة كاملة ، فتصنع عوالمنا الجميلة الباذخة : "نخلة حفصة ، مسامرات الليل ، ذاكرة بريسم ، قمر الكرخ ، جرّة سكنة ، حمار إبراهيم الجرمط ، طيور أحمد البطوشة ، الأبواب العتيقة الطاعنة ، عبير الدروب ، أصابع العروس ، حامض حلو ، الشرفات المشرقة ، حديقة علي العكلة ، أيام الملاّ، مغامرة الجول، الشط ، حكايات جدتي."

ولوج قويّ للأنا في موجودات زنكو تتحد من حولها ومعها الأشياء والأنفاس ، يولّدان شعوراً حميماً بالألفة والقرابة الإنسانية .

- ٧ -

النقطة: قمر الكرخ مركز كون الصبيّ تنشغل بالحركة ، تمتد خطاً ، والخط يغدو سطحاً ، والذرة الحية تمتزج مع محيطها في الاتجاهات كافة .

حركة الذرات تشكل أجساماً ، تستحيل كوْناً ، عاصمته الطفولة. والدربونة رأس الأمكنة ، ومنها تنبثق الحرية حاملة حقائق الأوطان ، جدلية مثيرة؛ ترفض الاختزالات العبثية، أو

اللجوء إلى الأقيّسة المنطقية الزائفة ، حيال الوعيّ بتبادلية الأنا والـــ (نحن)، وتَمَثُّلْ العلاقة الخالقة بين الطرفين، .. التي تنتح الإنسان الكلي ، وليس البنية الفردية ، فالوعيّ الإنساني، ينشئ بنيّة حميمة بالغة الرقيّ، في تشييد العمارة الاجتماعية :

زنَكوْ – الفحامة .

الفحامة – الكرخ .

الكرخ – الوطن .

الوطن – الأمة .

الأمة – الإنسان .

تتداعي الفردية وتتحلّ في لوحة قيمّ الدربونة ، فالواحد الفرد لا يكون إنساناً أو كائناً سوياً ما لم يكون كلياً ، الحاضر في وجدان مجتمع (زنكو) ، بوصفه تعبيراً لصوت الإجماع العام الذى لا يضلّ ولا يضلل أحداً ، وبهذا الطراز من (الإيثار) تنهض الحياة ، ويرتقي الإنسان.

– ٨ –

إستعادة الزمن الجميل ،

ليس إرتداداً إلى الوراء ، أو نقيضاً لمنطق الغد ، ولا هو دعوة لأحياء الزمن الفائت ، للإنكفاء في قوقعة الماضي ، وإلا فأننا نلحق ضرراً بليغاً بالعقل والحكمة والمستقبل .

إن قمر الكرخ بوصفه سيرة ذاتية للمكان يسعى لاستعادة أنوار الطبيعة الأولى وتوكيد الوظيفة الاجتماعية للفلسفة التي تعد الانشغال بمهموم الإنسان وقضية الوطن ، من مهامها الأولى .

وهي ذات الغاية التي أنشأ من أجلها كاتب هذه السطور أعماله الفكرية الأولى :

العقل والحرية

ثورة العقل

فلسفة العقل

وأسئلة الغد

بوصفها جدلاً نازلاً إلى خلايا الواقع ، لتحرير العقل من الأجوبة المتداولة ، محاولة يجتهد صاحبها أن تجد لها مكاناً إلى جوار الكتابات الصادقة التي تثابر إلى إنشاء نصّ الإنسان .

عبد الستار الراوي

المحروسة مصر العربية

ربيع ٢٠٠٧

الكرخ

-١-

جاء في رقم الطين البابلية ، بأن الكرخ كان يسمى منذ البدء : (مدينة الله) .
ويعني في اللغة الآرامية : المدينة الحصينة ، تردّ أسوارها السامقة ، مآرب الغزاة وكيد الطامعين،
ولذات الدواعي والأسباب سميت : قلعة الطيور،
والزوراء هي الكرخ ، الإسم التاريخي المجيد الذي أطلقه العباسيون في البدء على الضفة الغربية من دجلة ، لإنحناء قوس النهر ، فيما أصبحت الزوراء أحد أسماء بغداد ،
..والكرخ في فقه البغداديين هو :

- الصوب الصغير مقابل صوب الرصافة الكبير .
- الصوب العتيق بوصفه الأقدم في النشأة والتاريخ ،
- صوب عكيل : نسبة الى قبائل عكيل العربية التي نزحت من الجزيرة العربية وحطت الرحال في العراق وإتخذت من الكرخ مقاما ودارا ،
- والكرخ في ذاكرة أهله وبنيه جنة المأوى ،
- ولدى الأمهات :
- حديقة الأولياء
- شمس الصباح الندي
- حجاب المحبة
- هديل الحمام
- مرفأ الحنين

-٢-

- الكرخ والرصافة توأمان إنحدرا معا من أم واحدة هي المحروسة المبجلة بغداد ، جمجمة العرب وعروس البلدان وحاضرة الدنيا ليس لها نظيرفي مشارق الأرض ومغاربها إنها العالم كله معلق بها ومنجذب الى معناها..

الفحامة :

- ١ -

إحدى المحلات الكبيرة والشهيرة في الكرخ ينسب إسمها إلى صانعي الفحم وبائعيه. وظلت هذه المادة متداولة في ما بقي من (سكلاّتها) حتى اليوم .

حدودها كما وردت في أطلس بغداد :

شمالاً محلة الشيخ صندل وجامع عطا،

شرقاً : محلة الفلاحات .

غرباً : محلة المشاهدة .

جنوباً : محلة الدوريين .

وهي على شكل مربع متساوي الأضلاع طول الضلع الواحد حوالي ٥٠٠ خمسمائة متر.

وطبقا لذلك ، فأن مساحتها الكلية تساوي ٢٥٠٠٠٠م مائتان وخمسون ألف متر مربع .

يقطعها من الشمال إلى الجنوب ثلاثة طرق رئيسية:

الأول : يبتدئ من سوق علاوي الحنطة نزولا الى حمام شامي ، والطمّة ، مرورا ببيوت رحال ، نعيم العزاوي ،سكلة علي خميس الدليمي ، ومقهى عريبى ويتجه الى السعدية ، وتتصل نهايته بشارع الشيخ معروف .

الثاني : يقع قبالة جامع الشيخ صندل مروراً ببيت الغنّام ، وحميد الداوّد ، والشيخ عبد الله الخضير وبيت صكَير ، وينفذ من هناك إلى طرف (المعدان) ويتجه إلى مقهى جسام يساراً ، وسينما زبيدة يميناً ، ويصب في شارع الشيخ معروف قبالة مقام الحلاج ، ومستشفى (العزل) – الكرامة .

الثالث : أوله حافة (الدهدوانة) ، ومعروف العطار ، والصاغة ، والفراوي ، مروراً بمقهى (أبو ماشة) يساراً ودربونة الحصانة يميناً ، ثم يجئ السوق الصغير ، ومقهى خالد الورّة وجامع أبو السعد ، لينتهي بجامع الشيخ علي، ويتصل بمحلة المشاهدة . وتقطع الفحامة طرق داخلية مفتوحة عرضاً هي :

- الشيخية نسبة إلى سيدة من (المشايخية) تعمل خياطة ملابس نسائية في (أربعينات القرن الماضى) .
- كسّار (وهو كسّار الحيّالي) .
- ظاهر (عبود الظاهر) .

وثمة أزقة فرعية أخرى ، تعدّ إمتداداً للطرق الرئيسية أو موازية لها ، إلى جوار عدد من دربونات موصدة من أشهرها :

- دربونة زنْكوّ .

- دربونة البستان .
- دربونة بيت سبع .
- دربونة حلّيوّه .
- دربونة أبو السعد .
- دربونة الصفران (جوار خان الموّاصيل) .
- نتّه أم عنجاصة .

وتتوزع الفحامة على الأطراف التالية :

الشيخ صندل

- الطمة (أم العصافير) . - النزيزة (المعدان) .
- جميلة . - رأس المدورّ .
- السعدية . - خان المواصيل .
- صكَير - أبو السعد .
- الشيخية . - السوق الصغير .
- الحصانة . - بيت شمسي .

- ينبئ السلَم الاجتماعي لأهل الفحامة ، بأن الغالبية منهم عمال وشغيلة وكادحون ، أو ذوو حرف وصناعات متواضعة ، أو أصحاب دكاكين صغيرة مخصصة للمؤمن والخردوات والخضروات وغيرها ، وهؤلاء ينحدرون من طبقة فقيرة تعيش بمستوى الكفاف .

وثمة عدد محدود يرتقى إلى مستوى معيشي أعلى نسبياً في الدخول من الطبقة العامة السائدة .(*)

- ٢ -

تتميز الفحامة عن غيرها من محلات الكرخ الأخرى ، بعدد كبير من (الخانات) ذات المساحات الوسيعة، وهي متعددة الأغراض والدواعي.

والروايات المتداولة والموثقة على لسان الأجداد والآباء ، بأن الفحامة كانت بمثابة المحطة الرئيسية الأولى لإنطلاق قوافل التجارة إلى الحجاز ومصر وبلاد الشام ، حيث تقوم هذه الخانات بتجهيز الحملات بالأيواء والطعام ، وإن آل مشكور السعدي ، كانَ من البيوتات التي تعنى بهذا اللوّن من التجارة ، وقد إرتبط بتأريخ قوافل الأبل (شاحنات القرن التاسع عشر) ، وفي مقدمتهم خليل إبراهيم المشكور وحمزة خضر المشكور وقد إحتفظتْ خانات الفحامة بوظيفة إيواء الأبل والخيول ، والآتين الى الكرخ من أطراف البلاد. (*):

- ٣ -

.. ومن أنشطة المحلة المعيشية – التجارية ، تربية وتكثير العجول والأبقار ، وتكفي الدلالة على سعة هذا النمط من النشاط وجود سبع بقرات في محيط دربونة زنْكوْ وحدها تعود أربع منهن لكسار الحيالي وثلاث لإبراهيم الجرمط ، فكيف الحال إذا ما قورن هذا العدد مع ما هو موجود في الأزقة والأطراف الأخرى من المحلة. هذا عدا قطعان الجاموس العائمة في (النزيزة) القريبة من طرف (جميلّة). الذى يضم عدداً من بيوتات المعدان وشيخهم محمد جواد (أبو عبد الله)، الذي كان صديقاً أثيراً لأبي ، يجالسه في مقهى أحمد الكاظم.

– ٤ –

احتلت الفحامة المركز الأول في اقتناء الخيول الاصيلة تربية وإعداداً، تجارة وتصديراً ، ولأغراض السباقات ، وإن عدداً كبيراً من (الحضائر) كان منتشراً بين بيوتها وأطرافها ، إبتداءً بطرف الحصانة ، ومروراً بالخانات العشرة . وقد تفوقت الفحامة في هذه المهنة منذ القرن التاسع عشر، وإلى السبعينات من القرن الماضي ، واشتهر منها التجار والمروّضون والمراهنون والفرسان .

وهناك العشرات ممن تحتفظ بأسمائهم ذاكرة المكان (*)،

.. وقد ورث هؤلاء ولأجيال متعاقبة مهنة تصدير الخيول إلى الشام ومصر والهند ويذكر عباس بغدادي فى كتابه : (بغداد في العشرينات) : بأن عملية تصدير الخيول إلى الهند كانت تتم عن طريق البصرة ، ومن هناك تحملها السفن إلى (بومباي) ، ومنها إلى (بونا) ، وهي مصيف يلتقى فيها راجات الهند من هواة الخيول والسباقات .

وحين إنقطع تصدير الخيل إلى الهند بأمر من حكومتها ، إتجه المصدرون الى بيروت حيث يوجد فيها كبار التجار ممن يدفعون أثماناً مجزية للخيول العراقية ، وكان مقر أصحاب الخيل العراقية في منطقة (الحرش) ببيروت حيث تأوي الخيول داخل غابات الصنوبر .

ومن الأسماء المتداولة في الفحامة ، ممن بقي متواصلاً في تجارته هو ناجي عكاب (حفيد شاهين العكاب)، والذي أرديَ قتيلاً برصاصة طائشة عند أسوار الملعب البلدي في بيروت ، خلال الحرب الأهلية اللبنانية ، وكان ناجي وقتئذ قد إصطحب كعادته عدداً من الخيول إلى العاصمة اللبنانية .

وكان من بين تجار الفحامة من يذهب بالخيل إلى مصر ، لتباع هناك، بعد أن يتم إيواؤها في (إسطبلات) خاصة ، بمنطقة (المطرية) وفي الاسكندرية أيضاً .

ومن مروضي الخيل العراقيين الذين كانوا يقيمون في مصر ، (بيت طويرب) ، وعبد الرحمن أبو الخيل البغدادي الكرخي .

ومن أشهر راكبي الخيل وفرسانها ، كريم الأخرس ، ورشودي .

وكان الحصان المسمّى (تاج الملوك) موضع فخر واعتزاز دربونة زنكو ، حصان الحاج مشمش العبيدي عميد الدربونة وشيخها ، وقد طبقت شهرته آفاق الأربعينات طبقاً لمزاياه الجمالية الرشاقة ، النعومة ، إنسيابية الحركة ، بالإضافة إلى فوزه في السباقات .

– ٥ –

تؤمّن المحلة إحتياجاتها اليومية ، من الأسواق المجاورة وهي :

- العلاوي (علاوي الحنطة) .
- حمادة .
- العجيمي .

أما السوق الرابع ، فهو (السوق الصغير) ، الذي يقع في قلب الفحامة بين مقهى (أبو ماشة) ومسجد (أبي السعد). وما يزال هذا السوق قائماً حتى اليوم ، وهو يؤدي الدور نفسه الذى كان عليه منذ أربعينات القرن العشرين ، إلا إن كثيراً من معالمه جرى عليها التغيير ، منذ أنْ إرتحلّ عن دنيانا السيد حسين الفتحي (الحلاق) ، فتحول دكانه الى محل لبيع الخضروات ، وقُلّب مقهى حمادى أكبر مقاهي المحلة وأشهرها إلى قاعة للألعاب الإلكترونية تُدعى بلغّة القرن الحادي والعشرين : (البلاّي ستيشن) ؟!

.. ثمة سوق آخر يقع على ناصيتة دكان معروف العطار ، إبتلعه شارع حيفا ، كان يدعى بسوق (الفراوى)،ومن أشهر بائعيها في ذلك الوقت: (حايف المناوخ) ..

وعلى جهة السوق اليمنى محل الشيخ (كاغد) صائغ الحلّي الفضية وإلى جواره دكان سليم الصائغ .

– ٦ –

تعد المقاهي من المعالم التقليدية في المحلة ، وقد بلغ عددها فى الأربعينيات أكثر من عشر مقاهي ، عُنيّت غالبيتها بـــ (تزجية) الوقت، والترويح عن النفس ، وان اختلفت نسبياً أدوارها الاجتماعية في حياة وتأريخ الفحامة ، فمنها من كانت ملتقى لذوي الرأي وكبار السن، من شيوخ ووجوه المحلة ، كمقهى(جاسم الدرب) في السوق الصغير ،كانت تكتفي بتقديم الشاي والنارجيلة ، وقراءة (القرآن) و (المقام) ، .

تليها (مقهى علي) ، الواقعة على رأس الطريق النازل إلى طرف (المعدان) ، قبالة دكان كاظم الجميلة ، وقد عرفت فيما بعد باسم (مقهى أحمد الكاظم) وهو شقيق الشيخ عبد الله الكاظم الدليمي .

ويؤمها رجال دربونة زنكو والأطراف المجاورة لها ، وكثيراً ما كان ينشغل زبائنها بلعبة (النرد) إذ تجري المنافسة بين اللاعبين من روادها .

فيما تخصص جزءاً من لياليها للمسامرة ، فيكتظ المكان وتضيق رقعة المقهى بالآتين إليها ، وهم يصغون بتوق وشغف إلى (الحكواتي) ، وهو يسرّد عليهم نصوص السيرّ الشعبية المفعمة بالبسالة والسخاء والإيثار .

.. وعلى تخوت هذه المقهى أمضى أبي أمسياته ولياليه طوال فترة شبابه إلى جوار أصدقائه ، عبد الله الكاظم ، وكاظم الجميلة ، وجميل المشمش ، عبد الرازق العبود ، زيدان الخلف ،

– أما مقهى (عبد الله أبو ماشة) ، فكانت أشبه بالنادي الثقافي ، يتواصل فيها المتعلمون وطلاب الجامعة وبعض الموظفين ، والسمة الغالبة عليهما ، هي (الحوارات) السياسية ، وحرية التعبير التي تفصح عن وجود وعيّ ثقافي وسياسي بين روادها ، حيث كانت معظم التظاهرات الوطنية والقومية تنطلق من هذه المقهى ، وقد عرفت على امتداد تأريخها إلى جانب مقهى (عريبي) بان معظم زبائنها من التيار العروبي، وإن كثيرا من خلايا الاحزاب والحركات القومية ، تشكلت على آرائكها ، في أواسط أربعينيات القرن العشرين ، وتعمق دورها السياسي لاحقاً ، إثر العدوان الثلاثي الغاشم على مصر ، فأصبح الفكر الناصري من أبرز منابرها التنظيمية كالبعث العربي ، والاستقلال بتاريخه العتيد والذي تحول إلى حزب ناصري ، يدعو إلى الكفاح والوحدة والاشتراكية ، إلى جانب حركة القوميين العرب ، والرابطة القومية التي كان من بين مؤسسيها الشاعر المناضل عدنان الراوي .

.. فيما تظل (مقهى عريبي) العريقة راسخة في ميلاد التنوير الوطني والقومي ، إذْ شهدت أيامها البداية الأولى لمقاومة قوات الاحتلال البريطاني ، وعلى تخوتها إتخذ أهل الفحامة قرار مقاتلة العدو الانكليزي الذي جاء العراق غازياً معتدياً ، .. لذلك فإن هذه المقهى لم تكتف بتأييد ثورة العشرين ، أو مبايعة قادتها ، بل بادر الكثير من شباب الفحامة ورجالاتها إلى أن يتطوعوا في صفوف الثورة ويصبحوا جزءاً منها ، وظلت مقهى عريبي طوال الثلاثينيات وما تلاها ، الحلقة النضالية المحكمة ، في الاحداث الوطنية والقومية ، مروراً بثورة رشيد عالي الكيلاني (١٩٤١) ، وعام النكبة العربية في فلسطين (١٩٤٨) ، (بور سعيد ١٩٥٦)وقيام (الجمهورية العربية المتحدة) (١٩٥٨) ، وانتهاءً باحتلال العراق (٢٠٠٣/٤/٩) ، حيث تحولت (منطقة مقهى عريبي) كلها إلى فعل وطني مقاوم ، من أجل تحرر العراق وإلحاق الهزيمة بالمعتدين .. ومن المؤكد أن المعارك المظفرة التي تخوضها المقاومة كل يوم في (شارع حيفا) تفصح بيقين ثابت عن الطبيعة الوطنية للفحامة ، وتدلل بوضوح، على أصالة ودور المحلة البغدادية في الدفاع عن الوطن .

– فيما تقوم هذه المقاهي (*) أيضاً بوظيفة التواصل الاجتماعي بين أبناء المحلة واطرافها ، تعبيراً عن المديات العميقة للعلاقات الحميمة ، والمودة البالغة ، والصداقات الوطيدة التي تتميز بها الفحامة التي كانت تحرص دائماً على إشاعة الألفة والمحبة بين أبنائه .

– فالتعاون والتآزر والتكافل جزء لا ينفصل عن البناء النفسي العام ، الذي يحث على المروءة والنخوة ، والشيمة ، وتطبيق هذه السجايا الفاضلة بسلوك عملي من خلال المبادرة إلى إغاثة الملهوف ، والاستجابة التلقائية للمشاركة الفعلية في رفع الحيّف وإنصاف المظلوم،..

– لذلك كانت المقهى تمثل في وجه من وجوهها :(الرأي العام) للمحلة ، تجري فيها أحيانا منافشة القضايا العامة وتلك التي تتصل بحياة الناس اليومية .

– ٧ –

البيوت الصغيرة ، من التي لا تتسع مساحاتها الضيقة لتخصيص موضع للتنور ، فتستعين بـــ (تنور) الجيران ، يتناوبْنّ عليه تباعاً حتى آخرة الليل. وقد يلجأ البعض إلى شراء (الخبز) الجاهز .

وأذكر ثلاث خبازات في دربونه زنكو ، هن :

- ماهية (أم حميد) .
- أمينة الحمادي .
- حمدة (أم جبار) .

.. ولعل ضآلة الموارد المالية هي التي دفعت بهاتيك الأمهات إلى معاونة أزواجهن لمواجهة مطالب المعيشة وأعباء الحياة .

.. وكانت (مكينتا) طحين تعودان لبيت حليوة (إبراهيم وشقيقه إسماعيل) توفران هذه المادة لأهالي المحلة وأطرافها .

–٨–

الديوان كما يحدثنا عباس بغدادي ، ندوة ذات طابع اجتماعي ، تشبع رغبة المترددين عليها للمسامرة وفي المعرفة واستقصاء الأخبار ، وتبادل الآراء.

لذلك أُسستْ الدواوين ، فكان منها الأدبية والتجارية والترفيهية ، ومن الطبيعي أن يملك صاحب الديوان بيتاً وسيعاً يتوزع إلى قسمين :

الخاص بالعائلة ويسمى : (الحرم خانه) ، فيما يُدعى القسم الآخر : (الديواخانه) يخصص للزوار ، بمعزل عن أهل الدار. وفق الأصول المتبعة في ذلك الوقت ، كما يحتاج من يخدم الضيوف ويقوم بأمرهم ، فالبحبوحة المالية وحسن الاستقبال وعذوبة الأحاديث و(القهوة) من مستلزمات الديوان .

وقد كان للشيخ عبد الله الخضير مثل هذا الديوان ، وكان يتخذ داراً مستقلة لهذا الغرض قبل أن يتخلّى عنها ، ويؤجرها لحميد الغنّاش ، وكانت من بين أكبر بيوتات المحلة ، ولا يماثلها في السعة إلا دار أحمد صكير، وحاج مشمش، وحميد الداود، وحسون الهويّان .

والديوان الثاني فى الفحامة هو ديوان الحاج حمدان الطائي أحد وجهاء الفحامة وصاحب واحدة من أكبر (سكلات الفحم) في ذلك الوقت .
وثمة دواوين أخرى خاصة بالنساء ، وهي تختلف عن أيام (القبول) .
فالديوان الدائم شئ ، والقبول الاسبوعي أو الشهري شئ آخر ، سواء في نوعية الوافدات أو طبيعة ومضامين الأحاديث التي تدور فيه ، والتي يغلب عليها طابع الجد والأحتشام .

ومن هذه الدواوين :
ديوان (تاجة الصكير) فى الفحامة وهي أم عبد العزيز الصكير تاجر الجمال ، وكان ديوانها مفتوحاً في الليل والنهار ، وقهوتها جاهزة في كل وقت .
وكانت هذه السيدة موضع تقدير واحترام نساء المحلة ، تستشار في كثير من الأمور الاجتماعية .

- ٩ -

.. ومن مجاذيب المحلة إمرأتان هما :
بُلبُل أم رشودي
وننّه أم عنجاصة
وكانتا هادئتين ، وديعتين ، تبدآن المسير صباحاً ، مشياً في الأزقة والدرابين ، وتنهيان اليوم ، بالمبيت في إحدى الدور مع إحدى
العجائز .
وكانتا تتجولان بين محلات سوق الجديد وسوق حمادة ، وجامع عطا ، وعلاوى الشيخ صندل ، والدهدوانة .
فيما يلاحق الصبية بلبل ويمازحونها :
" .. بلبل شوّية علج" ؟
وظلت هذه الأهزوجة عن تلك المرأة تتردد على ألّسنة الأطفال بعد سنوات طويلة على وفاتها .
.. وتلك (صبيحة) إمرأة أخرى شفّ عقلها ، وهي تطيل الوقوف بباب الدار ، تنتظر عودة زوجها (بنّان) ، الذي إقتادته الشرطة يوماً ولم يعد بعدها إلى بيته .
وقد ترجمت ذاكرة الطفولة إنتظار صبيحة باهزوجة :
" بنّان نايم بالحبس ..
صبيحة وديلّه دبس " .

.. وهناك أيضاً (كريجي) تصغير (كرجي) أرهقت نوبات الصرع المتتالية جملته العصبية وتسببت في هزال واختزال بنّيته الجسدية ، فأحالته عظاماً ناتئة ، وأحدثت في وجهه إلتواءات شديدة ما بين الفم والعينين . يخرج الجمل قصاراً متآكلة الكلمات ، فتضيع المعاني ، يميل إلى الوحدة ، والانزواء ، علمنا أو اكتشفنا بأن دعاباتنا معه تثير مزاجه وتؤلمه ، فكفّ الصبية عن ممازحته ، وحلّ الرفق به والأسى عليه ، وظل جيلنا يعدّه كائناً قريباً ، أليفاً وديعاً. وقيل أن حادثة مروعة كانت سبباً في إضطرابه العقلي ، فقد تسبب من غير قصد في موت أخيه الصغير .. وقد ساءت إثرها حالته النفسية إلى الحد الذى أدى به إلى إلقاء أبيه من سطح البيت ليلقى حتفه على الفور ،وبسبب هذه الحادثة المأساوية أُودع كريجى فى مستشفى الامراض (العصبية) وبقى نزيلاً فيها حتى الموت !

- ١٠ -

للشقاوة (الفتوة) في بغداد تأريخ حافل طويل يمتد إلى الدولة العباسية ، حيث كانوا يسمون : الشطّار ، والعيارين ، وقد كان من علّو المقام والمهابة في عشرينات القرن العشرين أن يوصف الرجل بـــ(الشقاوة) .

والشقاوة كما يرى عباس بغدادي نوعان :

- شقاوة الشهامة والنخوة وإغاثة الضعيف على القوي .
- وبالضد من النوع الأول شقاوة الأجرام كاللصوصية والسلّب والاعتداء على الغير ضعيفاً كان أم قوياً .

فالأولى ؛ توصف بالشجاعة والمروءة أما الأخرى فيوصم صاحبها بالجبن والابتذال .

والأغلبية من شقاوات الفحامة من الصنف الأول ، الذين كانوا يظهرون الاحترام لأهل المحلة ، وأن أحداً منهم لم يجرؤ ولم يسع إلى إيقاع أذى أو يتعرض بسوء لأيّ من أبناء محلته أو طرفه ، ولعلّ صرامّة التقاليد الاجتماعية التي كانت سائدة في الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي كانت تحدّ من سلوك هؤلاء الشقاوات ، كذلك السلطة الاجتماعية لذوّي الرأي والوجهاء تفرض حضورها القويّ حيّال أي تصرف مشين، أو فعل غليظ. قد يصدر من هذا الشقاوة أو ذاك .

.. وفي ظنّي أن شقاوات الفحامة معظمهم كان مصاباً بميول إستعراضية ينصرف للمظهر ، دون المضمون ، أمثال :

فوزي الاقجم

إبن سعدة

الجنيّ (رشودي)

مبدر ابن حرفة

يوسف الدبشة

فاضل شكر

نوري العكلة

محسن السهيل

كريم العلوان

وفى يوم من أيام الاربيعينيات ، تخطى أحد هؤلاء الحاجز الاجتماعي ، في مقهى عريبي ، فوجد نفسه في مأزق لم يستطع الانفكاك من قبضته ، فارتّد على عقبيه وهو حسير ، إزاء الحزم الجماعي الذى وقف أمام جبروته ، ولم يجرؤ أن يعود إلى بيته ، إلا بعد إعلان التوبة ، وإبداء ندمه على فعلته ، يوم حاول أن يبتزّ أحد روّاد المقهى .

.. ولهؤلاء (الأشقياء) ألقاباً خاصة يكنّون بها ، كالأفجم ، والجنيّ ، وأبي كراع ، والمحراث وهم يعتقدون بأن مثل هذه الكنى والألقاب تضفي عليهم قدراً من الهيبة والوجاهة .

وتقترن هذه (الأبهة) المتوهمة أيضاً في طريقة إرتداء الملابس ، التي تؤكد تفاصيلها البعد الاستعراضي الذى يشير إلى إظهار إختلافهم عمن سواهم من الناس ،.

بعبارة أخرى ، يوحى لباسهم بأنهم متميزون أو منفصلون عن المحيط الذي يقيمون أو يتواجدون فيه. وتعدّ لفة الرأس (الجراويّة) أولى الدلائل على شخصية الشقاوة إذ يعمد الشقاوة إلى جعل الجراوية تنحدر إلى الكتف ، وتسمى (عدام) أي أن لابسها (بايع ومخلّص) ، وأنه يسير إلى (الاعدام) ؟

وقد تلبس (الجراويّة) على الرأس بغير عناية أو انتظام ، كجزء من محاولة إلفات النظر . واحتذاء (الكيوّه) البيضاء ، وارتداء سروال أبيض طويل ، يظهر طرفه من تحت (الدشداشة) ويجب أن يصل إلى كاحل القدم ، مع غطاء الرأس (عرقجين) أبيض ذي قبة مدببة عالية . وإن يحمل في جيبه سكيناً مطوية تعرف (بأم الياي) ، يستطيع أن يفردها بمجرد الضغط على زر ناتئ في قبضتها .

.. ومن دواعي إتمام العملية الاستعراضية ، يعمد الشقاوة إلى إبراز صدره إلى الأمام ، والتبختر فى المشي ، وفرد الذراعين بزاوية منفرجة تماماً ، حيث يضطر الآخرون عند مروره بهم أو إلى جوارهم أن يفسحوا له الطريق .

-١١-

من بيوتات المحلة العريقة والوجهاء فيها :

الحاج مشمش العبيدي (شيخ دربونة زنكو)

الشيخ عبد الله الفهيدى (المختار)

الشيخ عبد الله الخضير (مزارع)

حميد الداود

علي خميس الصريصر (سكله فحم)

الحاج حمادن الطائي ، (سكله فحم)

علوان العبيد صخيل

إبراهيم وإسماعيل الحليوه (معمل طحين)

عبد العزيز الصكير (تاجر جمال)

أحمد الصكير

كاظم الجميلة (دكان)

كسّار الحيالي

عبود كسّار العزاوي

درب الكسّار

عبد الرازق العبود (عامل)

زيدان خلف الجنابي (سلكه فحم)

الشيخ محمد جواد (شيخ المعدان)

الشيخ حسن المحمد (أحد شيوخ المعدان)

الشيخ عباس خضير العزاوي (دكان)

الملاّ حميد الراوي

الشيخ عبد الله الكاظم

عيسى (أبو الكاشي)

عبد الحميد عبد الله الخضير

علي المرتاج

الحاج حسين الفتحي الراوى (حلاق وختاّن)

علي العكلة

عبود الظاهر (دكان)

إل مشكور السعدي

الشيخ أحمد المعيوف (شيخ الجبور)

الشيخ محمد المصلاوي (دكان)

ناصر الدويج

حايف المناوخ

جميل المشمش

عباس جيجان

محمد الدليمي

بيت شمسي العاني

بيت الرحّال

بيت سميّر

بيت صخل

بيت أبو نويّة

بيت الراوي (عبد الجبار طه – عز الدين محمود)

بيت الغنّام

ومن بين الشخصيات البارزة في حياة الفحامة وأهلها هي شخصية الشيخ عبد الله الفهيدي مختار المحلة منذ عام ١٩٢٥ حتى رحيله في عقد الستينات من القرن الماضي .

عرف الشيخ الفهيدي بأناقته الشديدة ، واعتنائه بمظهره ونظافة ملابسه ، يقول أبي " .. كان رجلاً مهاباً وذا شمائل إنسانية ، يتفقد أحوال المحلة ويتواصل مع أبنائها فيعود المرضى . ويبادر إلى معاونة ذوى الحاجة من الناس. فكان يجوب الفحامة زقاقاً زقاقاً ، ليقف على الشئون والاحتياجات الشخصية والعامة .

فيسعى إلى تلبيتها .

يفدّ إليه الكثير من سكنة المحلة وأطرافها ومن أماكن شتى ، ويقصده ذوو الهموم والحاجات حاملين إليه (أوراق عرض الحال) فيلبي مطالبهم ويؤازرهم لدى دوائر الحكومة لتسهيل معاملات التجنيد ، الإرث ، التسجيل العقاري ، وسواها من الأعمال التي كان يقوم بها بنفس راضية .

يصفه جعفر آل مشكور السعدي :

(.. بأن عبد الله الفهيدي كان شيخاً كريماً لعموم أهل المحلة ، وكان بحق مختاراً واختياراً ، ويعدّ مثلاً أعلى لكمال الخلق مروءة واحساناً) .

عاش الفهيدي قرابة ثمانية عقود إتسمت كلها بالسمعة النديّة والذكر الحسن وبالخدمة العامة وإبداء العون لمن يحتاجه .

-١٢-

.. ومن شهيرات الأمهات والنساء في الفحامة .

- حفصة مراد (أم مجيد)
- صديقة العكلة (أم إرحيم)
- الحاجة برخة (لم تعقب)

- ماهية الحمادي (أم حميد)
- سكنة (ملاية الماء)
- فطومة الظاهر (أم سعود)
- زكية العمران الكردية (أم مجودة)
- جميلة (أم كاظم) – مولّدة .
- تاضى (بائعة زنابير المحيّة)
- ملكة التماوى (مولّدة الملك فيصل الثاني)

حمدة المحنة (إم جميل المشمش) .

- ١ -

زَنْكَوّ :

ذكر القدامى بأن الاسم أضفيَ على الدربونة إثر حادثة طريفة من أن جملاً لأعرابيّ محملاً بمادة ملح الطعام ولج الدربونة يوماً في زمن قديم يعود إلى بدايات القرن العشرين انحشر جسده فجأة بين جدارين متقاربين يضيقان عند داريْ (الحاج مشمش ونوره القدسي)، التي لا تزيد المسافة بينهما عن متر واحد .

.. حاول الإعرابيّ ومن حوله الناس إخراج الجمل من (زنقته) ، إلا أنهم أخفقوا .

.. وأعادوا المحاولة مرة أخرى وأخرى .

غربت الشمس وولّى النهار دونما جدوى ، وحين إنتصف الليل ، أُسقط في أيدي الجميع ،فلا الجدران تتزحزح من مستقرها ولا الحيوان قادر على النفاذ بجلده ، لم يعد أمام الرجل الذي ملكته الحيرة وهويتلفت الى أهل الدربونة إلاّ حلاً واحداً لاغيره، وهو أن يضع النهاية بنفسه ، فيعمد إلى نحر الجمل في المكان نفسه الذي زنق فيه. وقد تضامن الناس مع الإعرابي فدفعوا ثمن الضحية له ووزعوا اللحم فيما بينهم .

قالت هوّية الحالوب : في مروياتها :

"منذ تلك (الزنقة) المولغة في القدم. أضفى الناس على هذه الدربونة لاحقة التعريف فصارت الزنقة بلغة العامة – زنكوّ –

- ٢ -

تضمّ دربونة زنكو أحد عشر بيتاً ، متراصة متداخلة ، تحسبها بيتاً واحداً ، يشق جناحيها درب ضيق طويل نسبيا ، يبلغ طوله حوالي خمسة وعشرون متراً ولا يزيد عرضه عن خمس خطوات .

ينفرج في المبتدأ ويضيق في المنتهى عندما ينحرف الى جهة اليمين ، ليشكل مدخلا ذا طاق واطئ ، مستقلا عن حوض الدربونة ، ينفذ الى ممر بعرض متر واحد ، أويزيد عليه قليلا ، تتعانق فيه الجدران على نحو متداخل ، وكأنها جدار واحد ، وتطل على هذا الممر دار نوره القدسي ،تليها دار الحاج مشمش العبيدي ينحرف جهة اليسار قليلا ، حيث تواجهك دار (الراوى). وفي هذه النقطة بالذات كانت نهاية (الجمل) ،الذي بفضله حملت الدربونة إسمها العتيد .

.. يوحيّ التصميم المعماري للخارطة الهندسية بأن (زنْكوّ) كانت في البدء بيتاً قائماً بذاته ، يضم إحدى عشر حجرة .. ثم أتى عليها حين من الزمن ، فصارت أحد عشرة بيتاً .

- ٣ -

طبقاً للخارطة المعمارية ، فأن الجناح الأيمن إبتداء من المدخل يضم على التوالي الدور والعائلات التالية :

١- علي ناصر الدويج .

٢- ماهية (أم حميد) .

٣- علي العكلة ويضم عائلات :

- محمدين الدليمي .
- حميد الغناش .
- زكية الكردية .
- سبتي الاعمى .

٤- الحاج مشمش العبيدي وولده جميل .

٥- الراوي يضم عائلتين :

- عبد الجبار طه .
- عز الدين محمود .

٦- نورة القدسي (أم خالد) .

أما الجناح الأيسر فيضّم على التوالي دور .

٧- جمال وزوجته حمدة النعيمي .

٨- حفصة مراد (أم مجيد) .

٩- بطوشة زوجة العكلاوي .

١٠- زيدان خلف الجنابي .

١١- جرمط وزوجته ملكة (أم رشيد) .

- ٤ -

الطين. الأجر الأصفر. جذوع النخل. الحصران لغة تكوين منازلنا الأولى . صلة حميمية دافئة ، متعانقة ، متداخلة ، وبمحبة حانيّة ، تتكأ كل دار على أُخرى ، تشكل فيما بينها، حبلاً سرياً يشدّ قلوبها شدّا، لا ينفك أو يتراخى ،

حتى أضْحتْ زنكوّ كلها بيتاً واحداً .

قد تكون بيوتنا في ذلك الزمن بسيطة ، وصغيرة ، وأقل سعة، وحياتنا أكثر فقراً ، لكنها بكل تأكيد كانت الأقرب للطبيعة ، والأرحب حرية ، أنشأت حياة مفعمة بالبهجة والجمال والرضى .

باحاتها مفتوحة الآفاق فيأتيها الهواءُ والطيرُ والأنوار .. كما لو كانت حديقة زاهرة بلا أسوار . إلى أن انتقلنا إلى غابة الأسمنت ذات الستمائة متر المسلح ، فافتقدنا الدفء ، والألفة ، والشاعرية .

.. إن مفهوم البيت القديم في الزمن البهّي كما في (زنْكوّ) أخلّى مكانه في الأزمنة الباردة والأمكنة الأشد إغتراباً إلى القصور المنيفة والعمارات الشامخة، التي قد تكون كبيرة ، لكنها واطئة السقف شحيحة الضوء وقد تكون (عمياء) ، عديمة النوافذ ، كما لو كانت قبوراً بعدة طوابق .

– ٥ –

منذ البدء حتى آخره خمسينيات القرن الماضى ، والدربونة كانت بيتاً واحداً ، عامراً بالأيام الحلوة ، زاهرة بالحب ، تحدثت أُمهاتنا قائلات : "إن زنكوْ شأن غيرها من أزقة الكرخ العريقة ، وضّعتْ يدها على السرّ العظيم – المحبة– صانعة الخيرات والفضائل الإنسانية ، فأشرقت في النفوس قيّم :

الإيثار ، الشهامة ، الشيمة ، النخوة .السماحة ، البساطة ، البراءة ،السخاء عبر ثلاثية الفردوس المقيم : الحق ،الخير ، الجمال .

.. فالدور الأحدى عشرة تتواصل في السراء والضرّاء ، تلتقي القلوب والعقول عند الضرورة السببية التي تحتم أن يكون وجع الكائن الواحد كلياً ، فما يصيب داراً يحلّ بالدربونة كلها من أول بيت حتى آخر بيت .

.. وطبقاً لقانون الفطرة الأولى ، فأن التآزر المتبادل هو ذاته في أحوال الفرح وطقوس الفبطة ، كما في الأحزان .

.. علمتنا وصايا الأمهات :

" بأن العين المفتوحة على الذات دون الآخر ، تجلّب الإنانية ، وتوقع صاحبها فى الضلاّل . لأن الفردية بلّوْنها النرجسي موضع ريبة على الدوام ، قد تكون صالحة مرة ولكنها ذميمة في غالب المرات .

أما الإرادة العامة فهي صالحة في كل الأزمان. وهو ما درجت على توكيده وقائع الحياة . فانصياع الفرد للمشيئة العامة هو المبدأ العملي الأعلى الذى جعل بيوتنا الصغيرة تتشدّ لبعضها ، تتآزر في كل ما يتفق مع المصلحة الكلية.

فالفرد الذي يّعي كينونته في محيط الكل لابد أن يدرك أيضاً بأن حقوقه الطبيعية الوحيدة هي تلك التي يتمتع بها الناس كافة ..

وهذا هو القانون الذى جعل الحياة نضرّة متألقة ، تزْخرّ بكل هذه الخصوبة الباذخة من المعاني الإنسانية العذبة .

- ٦ -

الأمهات المبجلات ، أم واحدة ، والامومةُ تضمّ كل الأعداد والأسماء .

الواحدة منهن قوّامة على بنين وبنات الدربونة كافة .

فطاعتهن واجبة ، والإمتثال لوصّاياهنّ فرض وإلتزام ، وتوقيرهن برّ وإحسان .

كان جيلنا محظوظاً ، وهو يرى نفسه محاطاً بمشاعر إمومة ندّية ، تحدّب عليه ، وتقف إلى جواره وتسهر الليالي إذا أقعده مرض ، أوْ حلّ به أُذى ، ويصيبها هلع إذا تأخر فى الإياب ، ولا يكفّ لسانها عن الدعاء من أجله .

وكل أم من أمهاتنا تعتقد بأن لها في كل صبي حقاً ونصيبا ، فهو إبنها ، وإن لم تلّده أو تحملّ به ...

لم يغب وجه أيّ منهن ، رغم إنقضاء الايام وتراكم السنين ، فلكل واحدة منهن مقاماً حاضرا في الذاكرة والقلب ، وليس بوسع الأبناء بعد أن عبرت الامهات ضفة الحياة الدنيا إلى منازل السلام الأبدي ، إلا أن يقرأوا السلام الجميل إلى ذكرى الأمهات الطاهرات .

- حمدة المحنة (أم جميل المشمش) .
- حمدة النعيمي (أم جبار) .
- صديقة العكلة (أم إرحيم) .
- فطومة الظاهر (أم أسعد) .
- حفصة مراد (أم مجيد) .
- فتحية العساف (أم مهدي) .
- بطوشة (أم أحمد) .
- ملكة (أم رشيد) .
- نورة (أم خالد) .
- ماهية (أم حميد) .

.. وإلى أمي في الرضاعة زكية الكردية (أم مجودة)

- ٧ -

أشاعت الأمهات بين الصبية شعوراً عميقاً بأواصر القربى ، فقد أرضعت كل واحدة منهن وليد الأم الأخرى ، ذكراً كان أم إنثى. فصارت زنكو عائلة واحدة .

.. ولئن تضافرت على الدربونة :

أرزاء الموت . الأوبئة . الفاقة ، التموين ، الحروب ، فأن عائلة زنكو الكبيرة كانت تؤكد عبر المحن والشدائد على فضيلة (الحمّية) بالتآزر والتكافل بين بنيها ، فيلتحم الجميع بوعيّ اجتماعي مدهش ، على الحضور الكلي فى المكابدات والأحزان : لتؤكد قانون الإيثار:

(لا أنا من غير الآخر) ، فحريّ بالانسان أن يحب لغيره مايحبه لنفسه ، وبهذا المبدأ الاخلاقي ، ترتقي (الأنا) إلى الـــ(نحن) .

في الازمنة الموجعة ،عندما دهم القحط الناس وهدد الجوع الحياة، تنازلت الأمهات والآباء عن الطعام ، وشدّوا الحجر على البطون ، ولجأوا الى الصوم الطويل ، لتوفير لقمة سائغة للصغار .

تروى الأمهات : بأن أولياء الأمور كانوا في الزمن العسير، يشدّون بطونهم فى الأيام العسيرة وهم يقاومون أيام الجوع الطويلة .. فيما تمدّ الدربونة مائدة واحدة لبنيها الصغار ليأكلّوا ويشربوا ويُقرّوا عيْنّا ،

هكذا بقدر ما يقترب الناس من بعضهم ، فأنهم يقتربون من السعادة .

- ٨ -

لزمن طويل على إمتداد سنوات الطفولة والصبا ، كان الصبيّ يظن بأن (كلّ) بيوت الدربونة هي بيته ، فيدخل أيّاً منها متى شاء أو أراد ، قد يبيت في إحداها أو يشارك أهلها الطعام .

لم يدُرْ بخلدي وقتذاك أيّ معنى للملكية الخاصة ، فإذا إشتدّ بنا عطش أو شعر صبي منّا بجوع ... فالدربونة بيت واحد. نلج الدار الأقرب .

- ٩ -

المساواة التامة إحدى فضائل الطبيعة يثق الآباء وأولياء الأمور بأن الإيمان يفضي إلى الإنشراح ، الذي يقترن عندهم بالستر والعافية والرضى . إيمانا بالحكمة المتواترة :

(بأن لكل يوم غد وطعام) ، مقولة تتردد على ألّسنة الأمهات .

فالحياة تتسع وتزداد خيراتها بـــ (المتوفر) من الزاد والثمرات ،

.. بالرغم من الفقر والكفاف وشظف العيش ، فأن التواصل التلقائي في زنْكوْ يجعلهم كما الخلية الواحدة ، ما من كائن يعرى فيها ، أو ينام على الطوى ، فى ظل شجرة الأمومة الرحيمة التي لم تنسّ أحداً من أبنائها .

- ١٠ -

آباؤنا ينتمون إلى شريحة التعب المرّ والمهن الشاقة :

الغالبية منهم : عمال، حرفيون ، شغيلة .

ينحدرون من طبقة كادحة ، تتماثل فيها الدخول والعائدات والهموم ، فيما كانت أبواب الدربونة مشرعة أمام الاتين ، من الضيوف ، والغرباء ، وأبناء السبيل .

.. ولعل اليدّ البسوطة بالجود والكرم والكلمة العذبة ، هي إحدى شمائل عصر البراءة ، والزمن الجميل ، المفعم بالرفق والتواضع والصدق والمحبة والتقوى .

الحياة اليومية في زنكوْ :

الصباح

- ١ -

الدّيكة المحتشدة فوق سور دار علّي العكلة ، لا تهجع ولا تكف عن الصيّاح ،إلا لماما ، تثبٌّ قبيل الفجر نافخة الأوداج ، تثير صخباً عنيداً ، متواتراً في البدء .

ثم تبث نداءً متباعدا ً, ينبئ بافتضاض الظلمة ، وانبثاق النور الآتي من الأفق المترامي ، فتوقظ أولاً الحاج مشمش ، حمدة المحنة ، ثم ينهض الراقدون تباعاً ، ينادى الواحد منهم الآخر ، من فوق السطح أو من وراء جدار .

وبرفقة نجمات الصبح ، ترّد (سُكنة) الدربونة حاملة على ظهرها جرة الماء لتسقى الزرع والضرع بيتاً بيتاً ، فيما يجرى على لسانها نداء التعب الجميل :

حيّ على العمل

حيّ على العمل

عقب صلاة الفجر ينسرب الكادحون من آبائنا ، الخانجي ، العلوجي ، العامل ، البستاني ، الموظف، الشرطي يولون وجوههم أنحاءً شتى من جهات الدنيا الأربع !

- ٢ -

تلتقط ملكة (أم رشودى) نجمة الصبح قبيل أن تذوى ، فتقوم بعملية حلب البقرات الثلاث ، في دوارق طويلة الاعناق ، وهى لا تكف عن البسملة والحوقلة وقراءة المعوذات الثلاث ، يسكب إبراهيم الجرمط الحليب في جرار كبيرة من التوتياء ، ثم يحملّها برفق وأناة فوق ظهر حماره الكسول ، يلّف بها أطراف الفحامة من دار

لدار.. ولا يؤوب إبراهيم إلى زنكو ، إلا في آخرة الضحى ليهجع أو ينام .

- ٣ -

يرفع أحمد الصكَلاوي فوق شرفة الدار بيرقاً يهف بذئابته الرثة الطيور. ويعود يلّوح به في الفضاءات الفسيحة .

يرقب جذلاً السرب في (حلّته) الصباحية .. ويواصل الصفير والايماء. في حين لما تزلّ أمه (بطوشة) تغط في نومها العميق ، لم تنفذ الشمس إلى مخدعها بعد .

- ٤ -

يثب الفتية : هادي ، أسعد. سعود جبار. نزار. حاملين الدفاتر والأقلام ينتظمون زرافات وبعد حين يتفرقون عند هضبة (الدهدوانة) شطرين .

الأول يلج مدرسة الزوراء. فيما يواصل الشطر الثاني الطريق فينحدر صوب ثانوية الكرخ .

- ٥ -

عبد الله. مزهر. زهير. نعيم يحي ، إبراهيم ، وأنا. نضع يداً بيد ، نتجاور صفاً أفقياً، نخفّ إلى (ملاّ) حميد ، نتأبط متاعاً وفيراً في (عليجة) القرآن ، نسرع الخطى مرة . ونتباطأ مرة أخرى ..ونحن نهزجّ بمرح صاخب
(أُكعُدْ ترّيكْ .. فاتتْ الفحامه) وقد نتوقف عند معروف العطار ،لابتياع (الشكرات)..ثم نمضي
الضحى :

– ١ –

الأمهات مرهقات من عناء التطواف بين الأسواق ، عدنّ من رحلة التعب اليومية. حاملات أثقالاً من الخضرة والتموين والثمرات .

– ٢ –

عند حلول الضحى ، يجيئون تباعاً .
البعيرُ والحمارُ والبلدية .
الأول محمل بملح الطعام
حمار يحمل شْوكاً وحطباً
وحميد البلدية يتفقد نظافة الطرقات

– ٣ –

تتكئ ماهية (أم حميد) على عتبة دارها ترنو إلى رأس المدورّ ، وتدير البصر إلى جهتيّْ اليمين والشمال ، وكأنها تبحث عن شئ ما ، أو تنتظر عودة الغائب. دون أن يبارح الحزن العميق عينيها الصغيرتين .

– ٤ –

ملكة لا تعرف راحةً أو هجوعاً ، منشغلة بهموم (العلّف) ولّملّمة (الرُوثْ) ، تحدث نفسها عن وفرة الوقود في الشتاء .
نداءاتها تتوالى من غير إنقطاع ، تستحث (رشودى) أن ينهض من رقدته ، فقد أحرقت شمسُ الضحى الفراش.

– ٥ –

يخرج بريسم الذى أَوجعته الشيخوخة متباطئاً ، ينقل خطواته المتهالكة في حوض الدربونة يلقى بجسده الخرّبْ في بقعة الشمس ، يلتمس الدفء ، بعد أن إمتلأ صدرّه ببرد الليل ، يتمتم بـــ (عتابة) يذم فيها الزمان . ماإنْ يسمع سبتي أنين تباريح الصوت المجروح بالوحدة

والحنين ، حتى يجئ تسبقه عصاه ، يلملم عظامه،ويلوذ بجواربريسم ، يسأله الله أن يسمعه أبياتا أُخرى من العتابة ..فيجيبه الى طلبه، فتمتلئ العيون بالدموع ...

الظهيرة :

- ١ -

لم يعد الآباء المتعبون من رحلة الكدح اليومي بعد ،

إلا ثلاثة منهم :

الشرطي حميد الغناش

العامل محمدين الدليمي

إبراهيم الجرمط وحماره !

- ٢ -

صبحي عبد الجبار يتأفف متبرماً ساخطاً على قدره العاثر الذي يضطره يومياً أن يسير ماشياً على قدمّيه إلى الشورجة حاملاً –

(سفر طاس– الطعام) إلى أبيه وعمه .

- ٣ -

يشم الصبيُّ الجائعُ العائدُ من (الملاّ) رائحة (الدهن الحرّ) تمتزج بعبقات (التمن العنبر) ، يغذّ خطاه وثباً من رأس الدربونة حتى البيت.

- ٤ -

إذا حان وقت الغذاء والطعام .

يلّف الصمت الدربونة والطرقات .

ويبطل الكلام .

* * *

القيلولة :

قال نفر من الناس في زمن مضى وانقضى : أن (شنينة اللّبن) أثناء وجبة الغذاء ترث شاربها خدراً يفضي إلى الاسترخاء ويعجل بـــ (النوّم) ، فاللبن المخفوق بالماء صار طقساً منذ أيام بعيدة ، فلا تخلو مائدة ظهيرة الصيف منه. والشيوخ من أجدادنا وجداتنا يحرصون على الأخذ بهذه الحكمة المفيدة ، إستعداداً لإغفاءة القيلولة التي تريح الأجساد الواهنة العليلة ، لعلّ سنّة من النوم تعيد إليهم بعضاً من حيوية أو نشاط ، تعينهم على قضاء حاجة ملّحة! وبهذه الأمنية الصغيرة ، يستلقون على (الحصران) ، تحت مسرب الهواء (البادكير) ، حالمين بنسيمات نديّة ترطب جفاف الأجساد وقد تطري الأفئدة والقلوب .

العصر :

- ١ -

تباشر سكنة نوبة السقاية الثانية حاملة الهموم والجرّار .

- ٢ -

ليس وارداً في ذاكرة الدربونة أن تهجع العجول والبقرات السبع ، ولا حمار جرمط جرّب النومَ أو عرفَ الرقاد .

فالثُغاءُ والنهيقُ يتعانقان مرة ويفترقان مرة ..

- ٣ -

ليس ثمة من طقسٍ مقيم في الدربونة كما شايّ العصر ، التقليد المحبب الحميم حتى حسبه الصبيّ ميقاتاً مقدسا ، وفرضاً واجباً يحتم على إمهاتنا التقيّد به وتوقير تقاليده في الربيع والشتاء .

تهرع الصبايا غنية ، فكتوريا ،سنية ،قبيلة ، ضويّة ، وأختي ألمازة ، يتسابقن فيما بينهن لتهيئة دواعي الطقس الجميل ، في تنظيف ربعة المكان ورشّه بماء تعبق منه رائحة الريّاحين الناعمة ، ويأتين بحصران القصب الاصفر ، وبحشيات وطيئة لزوم الجلوس ، حتى إذا إستوى كل شئ ، تُطّل أمهاتنا حاملات (منقلة النار) وأباريق الشاي الخزفيّة الزرقاء ، و(كعك السيّد) ، وأرغفة الخبز الحار الذي أخرجته أمي من(تنور) البيت على التوّ ، فيما أحضرت حفصة (الرشاد) ، و(النعناع) ، و(الكراث) .

تبتدئ الحاجة حمدة المحنّة بوصايا تحث على العناية بالزوج المتعب الذي يكدّ طوال النهار،فعلّى الزوجة الحاذقة أنْ تجعل من البيت ملاذا هنيّا ، وأنْ تكون لهسكنا،وتحذر الامهات من إثقال كاهل الرجل بالهموم الصغيرة العابرة، تعقبهاالسيدية التي تحرص كعادتها إشاعة أجواء المرح ، وهي تواصل إلقاء الطرف ، وتذكّرهن بأن أعظم شئ في الانسان هو الوجه ، ومن العدل أن يكون بشوشا ،وأنْ تكون قسماته منبسطة تسرّ أهل البيت ، لانه المرآة التي يرانا بها الأبناء والأزواج ، يجلجل صوت زكية الضحوك وهي تعيد على الاسماع ماكان من حال زوجها عمران ، يوم إنقلبت به عربة الربل ، وهو يقودها في شارع الشيخ معروف ، وكيف رضت أضلاعه رضا شديدا ، وعندما أفاق إنفجر باالضحك فجاة إذ إكتشف بأن العربة كانت تمشي بثلاث عجلات بدلا من أربع ، وإنه لم يتنبه الى أنه أوع العجلة لدى ورشة التصليح ، فضجت الامهات بالضحك.

- ٤ -

إثر (الصرفة الثانية) من الملاّ ، يتراكض الصبية نحاول إقتناص الوقت قبل أنْ تذوي الشمس وتبتلع الظلمة النهار.. ننحدر إلى النهر ، نطفئ حرّ الصيف عائمين في مياه خضر إلياس ..

- ٥ -

قبل أن تمتدّ الحصران وتُبسط الأفرشة ترّش صبايا الدربونة السطوح.. إلى أن تنبث الأبخرة من الطين الحريّ .. وبعد حين ترتطب الأرض .

صبية زنكو :

-١-

-رشودي

ينكفئ رشيد إبراهيم الجرمط ، على شأنه الذاتي. تحسبه هارباً من الدنيا ، أو فاراً من الوجود. صنع لنفسه عالماً خاصاً به في منأى عن الأصحاب والأقران .

كان في الماضي كما هو حاله الآن مزيجاً من (بوهيمية) طليقة ، و(لا أدرية) عبثية ، تجاه الحياة. فلا يقدم على عمل أو لهوّ إلا باختياره المحض ، ولا يستجيب أو يمتثل لأمر أو نداء إلا بإرادته ومزاجه. فلا يكترث لأحد، ولا يليهه أيما شئ عن انشغالاته الشخصية.

يضيق بـــ (المكان) ، ولا يأبه بتقويم أو زمان ، فينفلت من الدربونة هائماً ، يبحث عن نفسه في أرض أخرى

.. لم يلتفت إلى مظهره يوماً ، وقد يخاصم جسده الاغتسال لزمن طويل ، إلا إذا اشتدّ عليه إلحاح أبيه أو قيدت حركته ملكة ، أو أقبل عليه عيد .

.. تأخذه إنجذابات عجيبة :

قد يرنو إلى حمار أبيه ،

أو يرقب طيراً ..

أو يحلق في الفضاءات مهاجرا ..

وهو في كل الأحوال ، غائباً عن الأرض .

وقد تلتقطه فكرة ما ، فيجري إثرها نحو الأطراف الأخرى ، فيقصى وجوده مغترباً في المكان مستوحداً ، يغيب وقت النهار ، وقد تطول غيبته طرفاً من الليل .

فتأكل الهواجس قلب أمه ، وتنشغل الدربونة بغيابه ، فتخرج تبحث عنه عند العصر .

تغرورّق عينّا ملكة بالدمع ،

تبكي وتئن ، وتلوذ بالصمت تدعو الله ، تبتهل أن يردّ إليها الولد التائه في طرقات العالم .

يختنق الصوت ، ينخفض آنّاً ، يتلاشى ويعود كما البحر الهائج يتفجّر صخباً ، ولْولّة وصُراخاً.

وتهيم الأم في أرجاء الدربونة تسأل عن أسرار الغيبه ؟!

عند صلاة المغرب

يأتي فصلُ الجزع المرّْ ،

تلطم أمٌّ رشيدٍ خدّيها ..

ويدوُر الصبيةُ في الأطراف ،

ننزل خضر إلياس وشط القمريّة والنوّاب وتحت الجسر

ونرود حدود (الأزرملي) ، وعلاوي الحلهْ
نسأل عنه في كلّ جهات الكرخ الأربعْ .
في بادئة الليل ، تنشق الأرض فتطلّ رأس رشيد السوداء ،
هوذا آتٍ من رحلته الميمونة .
لم يرق له التعليم ، فقد أنف المدرسة منذ الأيام الأولى ،
فثار على الانتظام اليومي ، ولعن التوقيتات المدرسية التي تشعره بالضجر .
وضاق بالمتواليات الجبرية بوصفها إملاءات قسرية من خارج ذاته.
فآنس إرادته الباحثة عن حرية تتجاوز قيود ومحددات المكان .
.. وقد دفعه الانعتاق في طول الحياة وعرضها إلى الخروج على الواقع والنظام والقانون ، بعد أن لم يجد تحت وطأة الأسئلة التي تطوّق روحه إلا إطلاق الرصاص، في واحدة من حروب الليل ، فقبع في السجن بضع سنين . جفت تحت أعبائها الثقيلة الأوهام والحقائق .
.. وعندما استرد حريته ، وخرج مرةً أخرى إلى الحياة ، جرب العمل الحرّ فمارس أَشغالاً كثيرة .. لكنها كانت هامشية قصيرة يتقلب فيها بين فصلّي الصيف والشتاء، بين (الدوندرمة) و (البقلاوة) .
.. ومن عبثياته التي تكشف عن بوهيميته الأولى والتي ظلت علامة فارقة في بنائه النفسي ، أن وقف إلى جوار إمرأة شقراء والتقط صورة معها ، ظل يحتفظ بها في جيبه ، يباهي بها رفقته وأصحابه ولم تك تلك السيدة الحسناء إلا دعاية لأفلام (كوداك) بالحجم الطبيعي لدى مصور الكرخ الشهير (محيّ عارف) .
.. ومن عبثياته الأخرى ، أن جاء يوماً (الفحامة) ، وقد تصاعدت إلى جمجمته الصغيرة أبخرة (حليب السباع) ، بعد أنْ عبّ منه (لتراً) ، حتى فقد رشده ، فأخذ في نزع ملابسه قطعة إثر أخرى .. وهو في حالة إنتشاء .. وجال أزقة الفحامة عارياً كما ولدته أمه ، وهو يردد إهزوجة :
" سكران بالك عنه
فلوس – العرك – مومنه " !
.. أستذكره الآن ، ويستغرقني الحنين إلى أيامنا الحلوة ، ونحن نردد :
" سوّوا حلاوة .. مات رشدوى " !
فيتملكه الغضب ، فيثور ويتمرد ..
وقد يشتمنا ويرمينا بالحجارة والحصا" ؟!

– ٢–

– مزهر المشمش

ظلت زنكو تستعيد شمائله العذبة ، فتى مهذباً ذا سيرة ندّية ودفء حميم ..
كان كما اللّمسة الحانيّة ، رقيقاً حالماً ، وشجاعاً أحبه أترابه والتفوا من حوله في الليالي المقمرة تجذبنا مسامراته الممتعة ، وحكاياته الساحرة، ونحن نطوف برفقته عالماً مثيراً عبر رحلات السندباد السبع والسيرة الهلالية عشق القراءة وولع بكتب التاريخ والأدب ، وأخرج من بين الأوراق الصفر والمتون القديمة حشداً من الأسئلة فانشغل بقضايا الوجود والحياة والمصير .. يبحث عن الجواب الشافي عبر علامات الاستفهام الكبيرة التي قد تريح ذهنه المتقد بحّمى الاستقصاء .

.. حاول تأصيل العلاقة بين الكلمة والحياة والنظر بالعمل ، والفكر بالواقع ، وأتسعت رقعة هموم الفتى مزهر جميل المشمش لتشمل الوطن كله .

ولجأ إلى فضيلة الحوار مؤمناً بأنه الشرط الأول لأية معرفة راقية تليق بالعقل والعقلاء ، مهما تباعدت المواقف أو اختلفت الآراء ، فالحقيقة كما الوطن من حق الجميع .

واحتفظ بحرارة البداية ، وهو ينشد القانون العام أو الشرط الكلي إزاء تناقضات الواقع العربي (التجزئة ، الإحتلال ، الاستغلال) .

وقد وجد هويته الفكرية في الانضمام إلى موكب الوحدة والحرية والاشتراكية مؤمنا بأنها الطريق الصحيح لتشييد المدينة العربية الآتية عبر سلسلة من الثنائيات :

الثورة – الحلم .

الوحدة – المستقبل .

الواقع – التأملات .

الممكنات – المضادات .

الوقائع – التصورات .

وبقَي مزهر متفانياً من أجل الغد ، وهو يحتضن (الحلم العربي) خشية أن يضيع أو يفلت منه ، وهو يرقب موعداً قادماً للفقراء والثوار والعشاق . يرنو إلى ألاتين من أفق العذاب إرتحل الفتى الجميل مزهر المشمش شهيداً في الشتاء ، وهو يضم إلى قلبه وردة البرتقال ، وكتاباً ينزف دماً عنوانه : الفردوس !

–٣–

- **صبري العكلة**

بشرة صلبة كما النحاس . ووجه صارم عنيد ، تتقاطع على صفحته خطوط غائرة عرضاً وطولاً ، تنبئ عن إشتباكات حامية لا حصر لها، خاضها صبري علي العلكة. فآثار الجروح بيّنة لكل ذي عين ، نتوءات بارزة . ثقوب عميقة ، فتدرك بأنك أمام محارب لم يلق السلاح بعد ، أو أنه عائد على التو من حرب ضروس .

ينتصب باستقامة النخل .
بنية مرصوصة ، تحسب جسده قُدّ من الفولاذ ، أنشأت قامته الفارعة ، مصارعات مستمرة وعراكات متصلة فأمدته بطاقة متدفقة لا يجد صاحبها سبيلاً لإفراغ الطاقة الهائلة إلا بمداومة العراك في ساحات (المكاسرة) فتملكته الميول الاستعراضية ، بعد أن إمتلأ زهواً بعضلاته المفتولة فلا يكاد يتلقى خبر معركة مرتقبة أو اشتباك وشيك ، إلا ويخفّ طرباً ، فيثبّ ، يطوي الأرض ، مدججاً بأدوات القتال :
مصيادة .
معجالاً .
رمحاً خشبياً .
وكيساً مثقلاً بالحجارة والحصا .
يقف عند رأس الدربونة ينادي صبية زنكو ، وكأنه يعلن (النفير) فيجئيون إليه خفافاً ، ينتظمون صفوفاً ثم يهتف هازجاً بأعلى صوته :
"إحنا الفحامة الدحامة بيرق منشور فحامه " .
تمضى الصفوف متراصة ، تجتاز الأزقة والأطراف ، تتجه إلى شارع الشيخ معروف ومستشفى (العزل) ويصعد الموكب الهضبة عند شريط السكة الحديدية فنواجه فتية المنصورية وصبيانها ويبدأ
(الكسار) .
لا يأبه صبري بالكم المناوئ مهما بلغت قوته أو عدده ، . لعلّه هو الذى إبتدع نظرية أن (المعركة) ليست إلا واحدة من سلسلة الحرب التي قد تطول وقائعها وتتنوع منازلاتها وتمتد أيامها ،
فإذا خسرنا جولة من هذه الحرب ، فأن هناك جولات أخرى .
وبهذا الأسلوب التعبوي ، فأنه يتحايل على الهزيمة ، ويأبى إقرار إنتصار الخصم بجولة واحدة .
ومن تقاليد المواجهة لديه ــ الحرص أن يكون هو ولا أحد غيره المبادر في بدء الهجوم ، وهو أيضاً آخر من يعود أو ينسحب من ميدان (الكسار) غير عابئ بما يتعرض له من مخاطر ، أو ما يصيبه من جروح وإيذاء . ويعلن بتحد عجيب أنه لن يمنح الطرف الآخر فرصة الفوز مرة أخرى . ولا تمضى إلا أيام معدودات حتى يتم الاتفاق بين المنصورية والفحامة . على ميقات معلوم لمعركة أخرى .
ويبادر الصبي العنيد إلى إعادة تنظيم صفوفنا ، فيحرضّنا على معاودة (الكرّ) ويحذر المتباطئين من مغبة (الفرّ) .

ففي رأيه أن الولد (السبع) لا يخاف ، لأن السبع لا يهزم ؟!!
ويحمل صبرى فى صدره قلباً ميتاً ، فلا يهاب ظلمة ولا يخشى شبحاً، فيغشى الليل ، ويرود المقابر ، ويتبوّل فى الخرائب المهجورة ، ويسخر من الأوهام وينزل وحده النهر ، يصارع الموج ، وهو الذى عبر دجلة ، واستراح في الضفة الأخرى .
ترك الابتدائية مبكراً ، واتجه منذ صباه إلى تنمية مهاراته فى (الحدادة) متنقلاً من ورشة إلى ورشة .
وكان كل الذى يثير إهتمامه هو القوة الجسدية وبناء العضلات .
ولئن عدت (المصارعة) هوايته الأثيرة الأولى التي فطر عليها ونشأ في طلبها وهو الذى لم يهزم في أيّ من جولاته التي إختارها صبياً وفتى ، فأن صبري أخفق تماماً في مغالبة الحرب التي فرضت عليه والتي أنشبها المرض فى جسده الفولاذي ، فأسقطه أرضاً منذ بداية الجولة الأولى ، فأحال كتلة الحديد الصلبة إلى كومة من عظام مفككة فشق على المحارب الشجاع القيام والقعود ، وعز عليه الكلام ، حتى إقتنص روحه الداء اللعين هكذا غاب الوجه الصارم العنيد وانطفأ صوته إلى الأبد ، فيما ظل صداه يتردد في ميدان الكسار " إحنه الفحامة الدحامة"
.. مات صبري وهو في عنفوان فتوته ، لم يتخط السادسة عشرة من عمره .

-٤-

ـ يحي عبد الجبار

أطلق عليه الصبية (الميكانيكى) ، وفى المدرسة الابتدائية كان عقلاً عملياً ، حاذقاً بعلم (الحركة) . فوضع يده على سرّ (النقلة) من مكان إلى آخر وفى العاشرة تجاوز دروس (الأشياء) .
عندما فاجأ معلمى الزوراء بأنه على دراية بالفيزياء الأولية ، ووضع بين أيديهم : دولاباً " ذاتى الحركة " تديره عتله مركبة دليلاً على مهاراته الميكانيكية .
وقد أفضى ولعه الشديد بهذه الهواية إلى ابتكار نماذج من اللعب الطريقة كانت فى أواخر الأربعينات مثار دهشة الدربونة وموضع إعجاب الفتية والآباء .
وحفزه حرّ الصيف أن يصنع مروحة كبيرة من صفائح التوتياء الرقيقة علقت فى (طارمة) الدار ، وركب رافعة آلية خففت عن الأهل عناء سحب مياه البئر بديلاً عن طريقة (الدلاء) التقليدية .
أمضينا السنوات العشر الأولى فى دار واحدة ، وتلقينا التعليم الأولى وحفظنا القرآن تحت اشراف الشيخين (ملاّ حماد) و (ملا حميد) ، وانتظمنا فى الزوراء معا فى العام نفسه .

وفى أزمنة الطفولة كان الميكانيكى بعيداً عن عالم الصبية ، كما لو كان يعيش فى دائرة من العزلة الاختيارية ، بعد ان انصرف بكامل إرادته إلى مشاغلة نفسه وهو يتلهى بابتكارات عديدة من صنعه ، كانت تلك الانشغالات هوايته الأولى ، واهتمامه الوحيد .
بعد أن نال شهادة الصناعة الثانوية ، كان راسه يمتلئ بأفكار وبمشاريع صناعية كثيرة ، وهو يحاول فى ذلك الوقت ان يعبر حاجز النظريات إلى الواقع التطبيقى .. فيما وجد في اعدادية صناعة(عانة) التي عين فيها مدرساً ، فرصة متاحة ، تمكن من خلال (ورشتها) أن يعيد الحياة إلى بعض الاجهزة والمكائن واستطاع فى تلك الفترة ايضا ان يطور كفاءة بعض المحركات ويضاعف من سرعاتها ، ويرفع من مستوى أداء البعض الآخر منها .
وفى اعدادية (عانة) أيضا أشرف بنفسه على تدريب واعداد عشرات من تلاميذه الذين اصبحوا بفضل رعايته واشرافه من الفنيين المهرة في ميادين العمل الصناعي والميكانيكي،. تخطى طموحه (التعليم الثانوى) ، وبدأ يلاحق حلمه العلمى واختار (اللغة الالمانية) ، وخلال عام واحد فقط . حقق تفوقاً على اقرانه فى اتقانها قراءة وكتابة ، وحديثاً . مما جعل معهد (جوته) الالمانى فى بغداد ان يقدم له زمالة دراسية أمدها سنتان فالتحق فى إحدى المؤسسات الصناعية الكبرى فى مدينة (منهايم) ، وقد وجد فى مختبرات وبرامج وورش العمل ضالته المنشودة ، فى تنمية معارفه ، وتوسيع دائرة اهتماماته ، وبفضل الامكانات التكنولوجية المتوفرة هناك ، أكمل دراسته التطبيقية وحصل على دبلوم عال بتقدير ممتاز ، فعرضت عليه المؤسسة الالمانية العمل فيها ، الا انه فضل العودة إلى الوطن تحت احساس الواجب الوطنى ، الذى يدعوه إلى وضع خبرته فى خدمة بلاده .. فانضم إلى شركة النفط فى (البصرة) وبقى يعمل فيها بكل همه وتفان . متنقلاً بين مواقع الشركة واقسامها الفنية والادارية ، إلى ان بلغت خدمته الوظيفية حدودها القانونية ، فاحال نفسه على (التقاعد) .
.. عمل بعدها مستشاراً فى عدد من المصانع والمنشآت الحكومية والأهلية ..
وحين نزل العدوان الامريكى الغاشم بالوطن .. اختاريحي عبد الجبار الرحيل إلى ما وراء الحدود .

-٥-

_إنعيّم الصديقة

إختبأ وراء نفسه التواقة لصخب الأزقة ، فآثر أن يكون ظلاً للصناديد ***** صبري العنيد و الصبي الأبنوسي المغامر محمد الكسار . وحاول إقتفاء أثرهما في الفرار من (الزوراء) ورفض القيود المدرسية ، وانحاز كما الكثيرين من جيلنا إلي الحياة العملية ، فوجد نفسه منذ صغره في معمل (حديد) ، وتعلم بسرعة فائقة فن زخرفة الأبواب ، والنوافذ ، واتقن صناعة

الحاويات العملاقة ، وكانت المطرقة التي ناء بحملها صبياً ، أصبحت بعد حين بخفّة المروحة اليدوية ، يتلاعب بها ، في طرق و تشذيب الكتل الهائلة ،...
و لأن طبيعة الأعمال التي يتولاها علي مدي ساعات النهار تضاهي الأشغال الشاقة ، فكان على انعيم الصديقة ان يبحث عن معادلة أخري تمتص تعب المطرقة ، وسعير أفران النار ، فأكتشف عالم المتع الصغيرة ، والسريعة التي تخففّ عن الفتي معاناة النهار ، فأختار مكاناً بعيداً عن فضول الرقباء والوشاة ، ماراً رخيصاً ، يدعي (مشروبات دجلة) في (الصالحية) ، علي ناصية ساحة (جمال عبد الناصر) ، فيعبّ علي عجلٍ في جوْفه (ربيعة المستكي) ،... ثمة يعبر الشارع ، يلتقط الرصيف فيخفّ في مشيته ، يستشعر بدبيب دافئ في عروق رأسه التي أثقلها صوت مطرقة الحديد ، يدلف باب (ملهي ليالي الصفا) منتشياً ، يتخذ مقعده في مسري الأضواء الحمراء بالأجساد البضّة وهي تتمايل غنجاً ، فتشبُّ حواّسُ إنعيم ،تتنقل بين اللمس المتردد ، والهمس الدافق ، و تحلق عينيه الجائعتين صوب الغانية السمراء ،يتلظى الصبُّ ، و تيبه طرباً في أفق الأنس فيشم عطر الليل ..
.. ولم يكن بوسع الفتى ، الإقدام إلى ما وراء النظرات والهمسات .. وهي أقصي مديات المتعة التي توقظ ذاكرته في اليوم التالي ، وهو يدلّي باعترافاته المثيرة بين رفقته في (جحيم الحديد) ، فلا شئ يثير نفوس الفتية المتعبين والشغيلة الكادحين أكثر ما يثيره الحديث عن الغواني ومغامرات الليل .
جالسته في (مقهى الجبوري) قبالة مقبرة الشيخ معروف ، كنت أرتادها ليالي الخميس في الستينات ، فيخفّ إنعيم من مكانه، و يقبل علي فرحاً و محيّياً ، نتجاور علي (التخت) نفسه ، نمضي المساء حتى أخره برفقه صوت (الفراوي) الشجي ، المنبث من (تسجيلات) المقهى ،..
.. وجددت أمسيات الخميس ، أيام (زنكو) ، وذكريات الطفولة والصبا ، و مغامراتنا الشجاعة ، في الطمة و الخرائب المهجورة ، و إقتحامنا قوس الخوف فيما وراء (الجعيفر) بحثا عن (الخناق) !
.. كان في تلك الفترة في تمام عزمه و فتوته ، منتصب القامة ، قويّ الصوت ، يلثغ كعادته بـــ (الراء) ،.. يتحدث بثقة ورزانة ، ويعيب علي الجيل الجديد الكسل ، والبرود ، والتذمر ،.. فيما كان يعزز أقواله بالأمثلة والشواهد ، ويومئ لطرف خفيّ إلي دورة في الحياة ، وتغلبه علي مشاقها ، وانه تمكن بـــ (ساعده) ، أن يرتقي سلم الصنعة ، ومن (صانع) تحت التدريب إلي (عامل) ماهر ، وتفوق علي أقرانه عندما أصبح (أسطة) ، يتعلم تحت يديه عشرات (العمال) .. و ظل يشق طريقه مثابراً إلي ان أقام (ورشة) خاصة به تدر عليه : (مالاً طيباً) .

.. في أُخريات عام ١٩٩٩ و بعد سنوات من الغياب الطويل ، إلتقيته في دار أخيه إرحيم في (حي العامل) ، وهالني ما رأيته ، هيكلاً متداعياً ، و شحوباً إمتص رحيق وجهه الملئ المتورد ، يلتقط نفسه بمشقة بالغة .
.. بعد أن داهمه (السكر) و (ضغط الدم المرتفع) و (الربو) ، هذا هو (إنعيم) ، يتكلم ببطء ، ويتعثر بالكلمات ، والصوت القوي ، بدا حفيفاً كما شجر الخريف و هو يردّد : " تري من يحمل أعباء عائلتي   الكبيرة ، التي إتسعت مطاليبها في هذا الزمن الصعب ، وفي ظل ظلمات الحصار التي إبتلعت المال والثمار " .
كانت أقواله كما المراثي ،.. اعتصرني الحزن وأنا أضمه إلي صدري .. و كان لقائي به ووداعي به ، في تلك الليلة الشتائية ، أخر عهدي به ، إلي أن أتاني النبأ الأليم ، ، بأن إنعيم إرتحل وقضى في الصباح اليوم الأول من القرن الواحد والعشرين .

-٦-

_ارحيّم الصديقة

قامة عالية كعمود منتصب و جسد ممتلئ لحما وشحما . ووجه ابيض ليّن القسمات أليّفا .
اجتمع في طبعه منذ طفولته ضدان : الوداعة والغضب . فاصبح مزاجه مثلا سائرا في (زنكو) – البارد الحار – اذ كيف يلتقي النقيضان ، فيمتزج الماء بالنار ؟!
فقد يثور لايما سبب مجهول او معلوم ، مباشر او غير مباشر ، وعندما تبدأ تمرداته وتنفجر صخبا وصراخا ، تتحلّ لغتة وتتناثر من فمه الكلمات ، مما يتعذر على أي من رفقته وانداده التقاط معنى من المعاني ، او فهم جملة مفيدة واحدة مما يقول .
ولا احد يعلم توقيتات الثورة ؟ ! ولكننا ندري تماما متى يتوقف البركان الهائج ، وعند أي حد تنطفئ النيران .
ومنذ ما يزيد على الخمسين عاما ظل الرجل على حاله لم يجر أي تغير على طباعه مذ كان صبيا حتى الوقت الحاضر . ورغم ذلك كله فان قلبه صفحة بيضاء ، بمقدورك ان تقرأ وتدرك ما يدور في وجدان ارحيم فملامحه مرآة جوانيته ، وظاهره توأم باطنه .
هذه وتلك من فضائله الاخلاقية العتيدة . اذ ليس بمقدوره ان يخفي ما لا تراه العين او يخبئ أمرًا لا يدركه الآخرون . فلا يمكن ان يخدع وجهه او يضلل احدًا . وحين يستثيره حدث ما ، فانه يتجاوز في غضبه كل الحدود والى اقصى المديات، وما ان تكتمل الدورة الغضبية وتذوي شرارتها ، حتى يعود الى طبيعته الودبعة ، فلا يرى ما يمنعه من اعلان التأسف وتقديم الاعتذار ويبادر الى بسط يديّه محييّا ، يلتمس لنفسه الاعذار عما بدر منه . بذات الحميمية

الانفعالية ، فانه يقبل على الطرف الاخر بأرق الالفاظ واعذب المشاعر ، وهو في الحالين: الأهتياج والوداعة صادق لا يكابر ولا يرائي ، وتلك فضيلته الاخلاقية الاخرى .
.. يمضي الصيف على ضفاف حبيب العجمي او عائما في شط خضر الياس ، .. الى جوار ولعه بالالعاب الرياضية.
وحين اذن موعد التسجيل في الزوراء فرح وطرب بالتجربة الجديدة ، وانتظم مع جيله في المدرسة ، .. وطال به المقام في الابتدائية ردحاً من الزمن ... واكتشف بعد مرور سنين ، ان الميكانيكا اقرب الى نفسه من نصوص القراءة ومسائل الحساب ، فانخرط في ميدان السباكة والحدادة ... ومهن يدوية اخرى ... وعندما سألته عن خياراته العديدة اجابني :
" انه يهوى العمل الحر ، فلم يشا ان يقيّد نفسه بمهنه واحدة ، وقد وجد في الحدادة وصناعة الابواب والكتائب والشبابيك نهاية مشوار التعب بعد ان نهض من حوله الاولاد واحاط به جيل من الاحفاد ، لم يعد يقوى على اختيار أي بديل، بعد ان دهمه مرض (ضغط الدم) ، وحّل في دمه (السكر) وكلا الدائين لا يوفران فرصة اخرى لمن في مثل سنه، في زمن مرٍّ كهذا الزمان المثقل بالهموم والمكابدات .
احتفظ ارحيم بشمائله الكرخية المعهودة ، وظل وفيا لايام الفحامة واهلها ، يغدق عواطفه الحميمة على اصحابه واترابه ، يحب الناس ، يتوق الي معاونتهم ويسعى الى خدمتهم دائماً . التقيته عام ١٩٩٧ في داره بـــ (حي العامل) بعد غيبة طالت عقودا من الزمن ، ووجدته بعد كل هذه السنوات الطويلة ، هو نفسه الانسان الشهم ، وكأني لم افارقه إلا يوماً أو بعض يوم !

-٧-

_فاروق العاشق

ولد تحت سماء زنكو في شتاء ١٩٤١ ، في ذات العام الذي اطل فيه ربيع المشمش ، صلاح الغناش ، صبري العكلة ، زهير الحفصة ، ارحيم الصديقة ، عبد الله زيدان ، وكاتب هذه السطور .
.. وكان بوجهه الجميل حالما رقيقا ، وحين بلغ الحلم استلب قلبه الهوى، فهام وَجْداً وعذاباً ، بعد أن أضناه العشق واسقمه النوى ، ولم يعد الفتى الخجول قادرا على كتمان لواعجه المستعرة ، .. بين الحياء والبوح والتردد والاقدام ، اعلن امام ابيه عن قراره المصيري الذي لا يمكن التنازل عنه ، والذي اوجزه بأنه احب فتاة ملكت فؤاده . وهو عازم على الاقتران بها لتكون له بيتاً و مأوى : وان اختياره يعني معادلة واحدة اما الزواج او الموت ؟ !
وبهذا الموقف القاطع المانع الذي لا يحتمل أي بديل أو إختيارعرض الامر على ابيه ، وهو يلتمس الموافقة لانهاء الموضوع !

ولسبب غير معروف رفض ناصر الدوّيج رغبه ولده ،... وحاول العاشق متوسلا مرة أخرى وأخرى ولكن توسلات الفتى ذهبت هباءً، ولم تؤد في نهاية الأمر إلاّ إلى عناد وإصرار الاب على الرفض القاطع ، والثبات على موقفه.

عندها وصل فاروق إلى نهاية الطريق .وأن ليس هناك من امل يرتجيه، بعد أن انطفأت الانوار . وحلّت الظلمة، فضاقت الدنيا في عينيه ، ولم يبق من سبيل أمامه الا الخروج على الواقع ، فأقدم على اختيار العدم بعد ان تبدد معنى الوجود . واصبحت الحقيقة الوحيدة القائمة في وجدانه هي الموت . وفي لحظة هاربة من الزمن أو من العقل اطلق الفتى الرصاص على نفسه فنفذت اطلاقة الى البطن فأحرقت الامعاء والاحشاء . وعندما سقط العاشق على الارض مضرجا بالدماء، احتشدت (زنكوٌ) بفزع الأفئدة ، الصوت الاتي من حجرة الانتحار ، ينبئ بفجيعة الموت ... فتعالى بكاء الامهات صارخات ، نائحات ، فيما صاح مجيد الحفصة :

.. " لا زال قلب فاروق ينبّض " .

حملته عربة اسعاف ، وادخل قاعة العمليات .

بعد خمس ليال، خرج الفتى من قائمة انتظار الموت، وحين افاق من غيبوبته ، كانت الدنيا غير الدنيا ، فقد علم ان التقنية الجراحية ، استبدلت احشاءه المعطوبة بأخرى .. وانه كان في عداد القتلى ... لكنه علم ايضا وانْ بعد حين بأن المرأة التى تحتل قلبه قد خطبت وانتقلت إلى حوزة رجل اخر ..

.. إجتذب قلب فاروق العشق الالهي ، فوجد الفتى الجميل نفسه يرتقي من الهموم الدنيوية العاجلة الى تألقات الحجة البيضاء الناصعة ، من الارض الى المقامات الرفيعة ، ماضيا في طريق المجاهدة الروحية ، عابدا زاهدا .. وانتهى شيخا جليلا .

... التقيته بعد مرور اربعة عقود ، شتاء ٢٠٠٢ وكنت برفقة ابراهيم زيدان ، وحدثته عن مشروع الكتابة عن تجربته (العاطفية) .. وانه سيكون احد كائنات عصر الكرخ الجميل ؟ ! فأشرق وجهه بابتسامة ودعاء . ثم عانقني بحرارة ومضى ..

-٨-

ـمحمد الكسّار

وجه أبنوسي بلون الليل .

تشرق على وجهه ابتسامه لا تغيب وكانه ولدّ بها منذ البدء .

اضفى الصبي الضحوك على طفولتنا ومرابع الصبا ظلالا وارفة من المرح والبهجة .

ملكته المغامرة فولع بالبحث عن مجهولات الامكنة وحاول الوصول الى ما وراء الفحامة فعبر خط الخوف فى رحلة استقصاء حقيقية (الخناك) الذى تداول اخباره الصبية تحت قمر الكرخ قيل انه يلوذ ببساتين (المنطقة) او يختبئ بين احراشها .

وهو محارب من طراز فريد .
مستعد للقتال .وتجذبه المعارك فى كل الاوقات وما ان يبدأ النفير فى (المحلة) حتى يتصدر الصفوف ولابد ان يكون موقعه : رأس الرمح.
واذْ نطلّ على مشارف الشيخ معروف وتبدأ المناوشة بين طرفيّ النزاع فان محمداً يؤثر (الحجابات) اي: الصفوف الامامية بلّغة جندية اليوم فتراه يسابق اقرانه ولا يدع احدا ينافسه فى الرمية الاولى ولم يك بوسع احد منافسته الا صنديداً مثله هو صبرى علي العكلة ايهما يرفع (معجاله) اولا فيقذف الحجارة جهة الخصم .
نزل منذ صباه ميدان الشغل الى جوار اخوته(*) ، فلم يتسع زمنه لاهتمام اخر، غير تربية المواشى والعجول ، فضاق المكوث بين جدران المدرسة ، وزادته (القصابة) التى لم يتقن مهنة أو هواية سواها، عزوفاً عن مواصلة تعليمه الاولي ، وعقب سنوات عديدة أمضاها فى الابتدائية، انتهى المطاف بالصبى ذي اللون الابنوسي الى إعلان التمرد فغادر (الزوراء)، مرة احدة وإلى الابد ، سألت عنه فى الامكنة، والازمنة، حاولت ان اصل الى اخباره، لعل أحد هنا أو هناك، يدلنّى على عنوانه، فطفقت ابحث عنه، لدى الاصحاب و خلان الوفاء ورفقة الصبا، باحثاً في جهات الكرخ كلها، لكن الزحام فى العاصمة كان كثيفا، إبتلع الوجوه والأسماء، لذلك لم احظ بجواب عن أخباره، الا بعد سنين، (**) فقد اتانى نبأ اثر حديث فى مقهى، قيل أنه: " عاد من رحلة الليالى شقيًا، بعد ان انطفأت البهجة فى قلبه، فزاول الصبى (الشيخ) مرحه الطروب، الذي اشاع الأنس الجميل في حياة فى زنكو ورأس المدور ، وقفت قبالة حجرة عارية منعزلة، اقرب الى (سقيفة) متهاوية ، تمخر فيها الريحُ فى (مقبرة) الشيخ داود الطائي ، وبعد حين اطلّ من بوابة صغيرة متهالكة الوجه الابنوسي كهلاً متعباً شارداً زائغ النظرات غابت ابتسامته المشرقة التى نشأ وعرف بها فلم ارّ الا عينين غارقتين فى قاع من الاسى .
أمسك بيدي، ضمنّي إلى صدره، وعانقني بحرارة، وهو يغالب دموعه التي فاضت بها عيناه. وأنزلني وولدي عزاوي على بساط ممدود في حجرته المستوحدة بين القبور، .. وهو لا يكاد يصدق أن يراني بعد كل هذه السنوات الطويلة.
قال: "لم أدع أحدًا من أصحابنا القدامى إلا وسألته عنك، وحاولت البحث عنك في زحام المدينة، دونما جدوى.
"إنك أعدتني الآن، إلى أيام صبانا، إلى ذكرى (زنكو) العزيزة، الراسخة في قلبي وروحي، التي لم تفارقني يومًا، لقد لثمت عتبات دورها واحدة واحدة، قبل أن يقتلع شارع حيفا الجديد جذورها، عانقت أبوابها، وبكيت تحت أفياء (نخلة حفصة)، وشممت عطر الصحبة والأحبة بين حناياها".

وعندما سألته عن أحواله، قال :

"انقلب الحال يا صاحبي، فقد ولى الزمان العذب، وارتحلت سنوات العمر الجميل، لم يعد ثمة من أمل أعيش به، أو لأجله، فلقد اختطفت الحرب ولدي البكر، قضى شهيدًا في جبهة الموت، فأخذ غيابه الأبدي الحياة كلها، ولم يعد الحلم القديم إلاّ بقعة داكنة في مهاوي الفجيعة، .

فالزاد يا صاحبي قليل

والسفر إلى الغد طويل؟!

وأنا هنا جوار (قبر) ابني،

بعد أن آنست نفسي مملكة الموت .

فالصمت لا يتعب أحدًا هنا ،

.. أنتظر (وعد) الرحلة الأبدية، التي تعني الآن أو بعد حين: فاصلة الختام التي أرقب مجيئها بشوق!

وتساءلت والوجع المرّ يمضغ قلبي حزنًا.

أين مضى الوجه الأبنوسي المنغمر بالمرح والظرف؟!

وأين ولت الأيام الحلوة؟!

رأيت أمامي إنسانًا شقيًا، يغالب بدموعه قدر الموت الأعمى.

لم يبق من تلك الإشراقة البهيجة المحببة إلاّ ظلاً واهيًا يكاد يتلاشى.

فلم يعد بوسع محمد الكسار الحيالي الذي ملأ فضاءات طفولتنا بمرحه وظرفه، إلا انتظار قدره .لم يجد هذا الانسان مكانا يلوذ به او يأوي اليه في هذا العالم الوحشي الا المقابر ومجاورة الموتى.!

-٩-

_ زهير قرّو

يعبث بالرمل ، يلقى حجرًا فى قاع النهر ، يثب كالطير عند الجرف ، يستلقى عند القيلولة فى (الگيش الحلاوى).، او يقفز من فوق (الدوبة) ، يركض فى درب الحصانة أثر خيول رشيد الطرفة و يثير صخباً فى طرقات الفحامة، عند مرور قافلة النوق يهزج : "(بعيره نامى نامى جاج محمد حرامي) .

يتفجر حيوية ونشاطًا حركيًا عجيبًا، سريع التنقل، دائب التجوال، ينفر من السكينة ، فيوقظ السبات يحيله ضجيجا، فلم يقر له قرار فى صباه فى مكان او زمان، مناوئًا السكون

والصمت يميل الى التغيير فتراه يتنقل بخفة مدهشة كما العصفور ينسل بلمح البصر من بين الرفقة حتى يظهر فجاة .

خُلق زهير عجولا ؛فى الكلام والحياة، واللعب، وطريقة تناول الطعام، تندفع جمله القصار، و تتوالى كلماته، بسرعة تفوق الصوت ، وان تناول طعاما، يزدرده دون مضغ، فيأتى على وجبته، بعجالة متناهية .

وقد أضفى تكوينه الحركى، على حياة زنكو، طابعا ملوّنا، متدفقا بالمرح والطرائف، والحركات الرياضية (البهلوانية)، التى كان يتقنها بكل حذق ومهارة ، فشغف زمنا طويلا بالتمرينات الرياضية العنيفة، التى تعّنى ببناء الجسم وتنمية العضلات.

ومن بين سجاياه التى عرف بها أصدقائه، شهامته وحميميّته، وعاطفته المتأججة، فى حب الناس، والتفانى من أجل أصدقائه.

اذا كانت الطفولة هى صفحة الانسان الذهبية ففي أيّ الوقائع يمكن ان يكتبها قانون التغير والصيرورة فى الصفحات اللاحقة من مسيرة زهير الحفصة ؟! ذلك الصبى الذي كانت تصفه الأمهات بـــ (الكرجى) ذى العينين الزرقاوين والشعر الذهبى المنسرح والوجه الجميل ؟!

ترى ما الذي تخبئه الايام عقب مرور خمسين حولا؟!

" يعدو صوب المسجد يحرص ان يجد له مكانا خلف الأمام . واذا سالته عن حاله : يجيبك " الدنيا بخير والخير كثير " .

" رضى الحمد لله "!

ترى أي مقام اقترب منه او ارتقاه لينعم بالقناعة والرضى و يفيض لسانه بالبشر واليقين؟!

عندما أنهى خدمة العلم، انخرط فى العمل، ولم يجد فرصة متاحة امامه، الا مصنعا للدخان، فافنى فى اجوائه الملوثّة أغلى سنوات شبابه، شغيلا كادحا، خرج منه عقب خدمه ثلاثين عاما، خال الوفاض، الا مكافاة نقدية متواضعة، لم تأمنه من خوف، او تقيه من جوع، فاحسّ وكأن وجوده اصبح كمالعدم خاو عارياً ، حتى من حلمه الصغير، ان يصيب مالاً يبنى بيتا لبناته الأربع وولده الوحيد ، فتقلب بين ضروب الشقاء والعوزّ، بعد أن أسقمه المرض، وسنوات الحصار العجاف، فتوالت عليه العاديات، حتى استلبت مابقى من ظلال تلك الشعلة المتقدة فى صدره، فاستحالت حركتة ركاما باردا .

لم يكف قلبه المحاصر بمرارة الحياة، وهموم العيش عن المقاومة، يقول زهير : " بدا العمر جرحًا غائرًا بلا قرار ترى هل ضلّتْ خطوتى الطريق الى ذاتى ؟! وانا احاول البحث عن (المعنى) الذى اشتقت الى معرفته منذ صباي، لم اجد فرصة لالتقاط انفاسي، ولم احظ بفترة استرخاء انساني داخل الزمن، فكنت كالتائه، أدور حول نفسي، او فى حلقة فارغة، فى كون بارد بلا قلب ".

يواصل رفيق الصبا والصديق، رحلة الكدح اليومي المرّ، وهو يضع اعوامه الستين، في حكمة (الصبر الجميل)، يستعين بها على مغالبة الزمن ، يستفيق قبيل الفجر، ليصلي الفرض الاول، خلف امام مسجد ابي السعد ، ثمة يطوى جسده النحيل الطريق الممدود الى الشغل .
واذْ استذكر سيّرة زهير عبد الرزاق، فلآنه احد كائنات زنكّوْ وايامها الندية الاولى ، عرفته انساناً مثابراً امضى عقود عمره كلها وهو يغالب مشاق التكليف على الارض غير آبهٍ باوجاع صدره المنخور، ولا بعلل جسده الأخرى، التي إمتصت رحيق عمره .
هو ذا زهير يتكئ على حميته باباء النبلاء ليوفر قوتًا يوميًا ويضيئ قنديل الامل في قلوب بناته الأربع وابنه الوحيد .
هذا الرجل الذي يقف على جرحه البليغ، لا يزال يواصل مقاومتة الشجاعة، في هذا الزمن المرّ، مخلصا لشمائله الكرخية الأصيلة .
النخوة ، الشهامة ، الاريحية، مذْ كان يدرج في الدربونة طفلا وصبيا، يحنو على اترابه، ويغدق كل ذلك الحب، على اصحابه ورفقته، .لذلك رفض الرحيل عن رقعة الضوء الحانية، فالبعد عن الديار، و مفارقة المرابع، والاوطان، لدى زهير هو المستحيل بعينه، فلا سبيل امامه للتنازل عن _(المثُلُ الاولى)، في ايّ من جهات الارض، هنا تحيا الروح، لأنها تحتضن الفحامة ، وبين حناياها ، تتنسم عبير الزمن الذي مضى .
في زمن العدوان الوحشي على الوطن (٢٠٠٣/٤/٩) عندما اقتحم الفاشست الامريكان عاصمة المنصور العباسي صاح زهير بصوته الجريح : ايها القتلة الرعاة المتوحشون : سيأتيكم الموت على أيدي العراقيين وستولوّن الأدبار ولو بعد حين، وسياتي المدّد من كل جهات الزوراء، وستقذف بغداد بالاعداء والدخلاء والاشرار،
عاش الرجل الكهل منذ يوم الواقعة الكبرى ، وهو ينشئ اسئلته المعذبة التي تنثال من روحه الجريحة سؤالاً اثر سؤال . وفي اعلى الليل من اخرة أب (٢٠٠٦) اغمض عينيه في الدار النائمة فيحضن فحامة الكرخ، وهو يردد شهادة النصر : أشهد أن المقاومة حق، أشهد ان العراق وطن واحد من الشمال إلى الجنوب ، وأشهد أن النصر ات حتما وان الأمريكيين ومن والاهم زائلون..

-١٠-

_عبدالله زيدان

مُذْ كان صبيا يقرا (عمّ) في الملا ،وعبدالله يرنو جهة الآتين من عصر الغبطة ، تحسبه درويشاً ، يتكئ على حائط الضحى ، ظلا منسربا من رحبات الدربونة ، عائدا من زحام كثيف. لم يتخل عن ميقات (جمعة) الشيخ صندلّ ، ولا فارقت وجهه الاسمر ابتسامة الرضى

، منذ كانت الشمس بيضاء على جبهة الطفولة ، وهو يقرأ السلام الوقور ، يلوذ عند اشتعال الضجيج بظل عتبة الدار يمكث قعيدا بعيدا .
وقد يصحبنا الى (الشط) فلا يبرح الجرف الا عند احتشاد المياه بالعائمين، فراشة من حرير اذا تكلم او مشى همساً ناعماً هادئ الطبع ليّن الحاشية حنوناً احتفظ بوسامته الفريدة فوق عاديات الجفاف والإملاق . ظفر بوظيفة متواضعة في ديوان الحكومة ، ما برح يدور حول اطلال (زنكو) ، في ميقات معلوم قبيل صلاة الجمعة .
عندما عدت للفحامة، وأقمنا في شارع حيفا (١٩٨٦- ١٩٩١)، ننزل السوق الصغير معًا، ننتبذ ركنًا في مقهى (خالد الورة)، يحدثني عن خارطة الكوْن الكرخي، وما حلّ بدنيانا الأولى، أسأله عن رفقتنا، ومصير الأصحاب والأتراب؟!
عن نوري العكلة، ونزار المشمش، ومحمد الكسار، ورشودي وإبراهيم خطاب، ؟!
فيجيب عبد الله بأسى:
"خرج نوري من بيته ليلة عيد، لم يعد حتى اليوم، ونزار معلم في (الدورة)، محمد الكسار قصّاب عجول في (الوكفة).
رشودي يقبع في ظلمات السجن، وإبراهيم أخي يعمل في التعليم الإعدادي (بكركوك)، أما خطّاب البدرية فلايزال يجيء الفحامة ويطل علينا بالمقهى" .
... وعندما أنشب الحصار البغيض مخالبه في الرقاب وامتص دماء العراقيين ، وسقط تحت وطأته الموجعة مئات الألوف من الضحايا ، كان ايضا على مقربة من عبد الله ، وكاد أن يلقيه أرضًا ويصرعه بعد أن مسه الجوع ، فانتفضّ الرجل الكرخي . صمم أن يواجه الخطب القائم بعزم وثبات ، إذ لم يعد ثمة إختيار إلا الموت أو المقاومة ، الهزيمة أو الانتصار ، فالتقط خط الحياة ، بعد أن وضع في شارع حيفا جوار بيته سلال الفاكهة والخضروات ، دون أن يتنازل عن وظيفته الحكومية .. وهو يعمل بمعدل قد يصل إلى عشرين ساعة في اليوم من أجل أن يبقى بيته راسخاً وقائماً !

-١١-

_ربيع جميل

منذ ان جاء الى الدنيا صيف ١٩٤١ ، كان هادئاً ، متاملا ، مرهف الحس ، رقيق الحاشية .. امضينا معًا السنوات العشر الأولى معا بين زنكو والملا والزوراء كان مولعاً بالطين يصنع من مادته الغليظة تشكيلات ناعمة عجيبة ، تنتصب ببهاء بامتداد شواطئ خضر الياس وشريعة النوّاب ، وحبيب العجمي ينشغل ربيع جميل المشمش ، بتكويناته الرائعة .. اقام مرة قصرا باذخ الجمال .. يمتلئ بشرفات تصدح فيه الطيور وتركض في حدائقه الغزلان ..
وعندما أنهى دراسته المتوسطة لم يتخل عن موهبته التشكيلية ، فاقتادته الذائقة الجمالية التي

تهيمن على روجه الى معهد الفنون الجميلة ، فاكمل سنوات الدراسة الخمس بتفوق وامتيازفى فرع السيراميك .. واستعاد معرضه الشخصي في باحة المعهد ، حياة الطفولة الأولى ، فأطلّت تكويناته الحانية حاملة قبسات من روحه المفعمة بمحبة الفحامة وأيامها ضمّت الكثير من المشاهد ومنها :

- طيور أحمد البطوشة
- نخلة حفصة ..
- حصان الحاج مشمش (تاج الملوك)
- بوابة خان المواصيل .
- شرفات دار المختار
- قمر الكرخ ..
- جرّة سكنة
- حمار إبراهيم الجرمط .
- شايّ العصر في زنكو
- حجاب (الملاّ جواد) ..
- الورد الجوري.

-١٢-

_ صلاح الحزين

صلاح حميد الّغناش ، القسمات الحزينة التى ولّد بها ، وهي كل تفاصيل الوجه والعينين المليئتين بأسى غامض عميق الغوْر .. منشغل في الان وفي كل لحظة ، بنداءات أمه (كيفية) الجزعة وهي تحاصره، متوجسة شرّا مستطيرًا من أن ينال فتاها إنْ فكّر بمفارقة الدربونة او أخذته حماسة الصبية الى (الشط) .. فجأة نجدها تقف على راسه ، او تتحسس جبهته، خشية (الحمّى) ... او تناديه من وراء الشرفة (الطوفة) وهي تحاوره عمّا يشغل باله او ينتويه .. وهي لا تكّف عن الوصايا :

" ابق حيث انت . فلا تغادر مكانك " .

" اياك ان تركض في الدروب " .

" لا تنزل الشط ..

وتكرر وصاياها مثنى وثلاث ورباعا ...لم ندرك في تلك السنوات الغابرة البعيدة معنى انشغال كيفية أوسّر إلحاحها على هذا النحو من الحرص الذي جعل حياة ولدها مربعا ضيقا كما القفص ، مقيدا داخله .. بعد مرور عقدين من الزمن عرفنا السبب وراء هلع الأم

والتياعها عندما كانت تحتضنه وتبكي ، وكأنها تتوقع في كل وقت ان يرحل او يغيب او يسقط ميتا.. وعندما أشيع نبأ الفراق الابدي ، علمنا بأن صلاح بقسماته الحزينة ، كان مصابا بعلة قاتلة قد تسقطه في أية لحظة أو تقضي عليه في الحال ، اذ ولّد بقلب واهن لا يقوي صاحبه القيام بأي عمل ولا يحتمل أي انفعال . ومضى صلاح الوديع في الرحلة الابدية شابا فتيا تاركا وراءه ذكرى الصحبة وايامها الحلوة في زنكوْ .

-١٣-

_ابراهيم زيدان

ذو العينين الوديعتين الصغيرتين والوجه الحزين، قاوم فى صباه صخب الازقة وانشغالاتها، فاوقد فى رابعة النهار قنديل العقل، ولع بالتعليم وانكب على دفتر الحساب، واستظهر نصوص القراءة والاناشيد، يصعد الدهدوانة مهرولا، وياتى (الزوراء) مبكرا فرحا، وحين ظفر بـــ (الشهادة الجامعية) ، كان ثمة حب عظيم قد اورق فى قلبه، فاشعل جوانح الفتى غراما ووجدا، فاثر ضغط خط الرحلة بين نقطتيّْ : الوظيفة والدراسات العليا .

فاختار الاولى لينشئ بيتا يضم حلمه الجميل، إنتظم فى سلك التعليم الثانوي، بمدارس مدينة كركوك القصية، إغترب فيها عن اترابه ورفقتة ثلاثين عاما، وعندما افاق فى صباح العام التالى، افزعتة المرآة (المتكسرة) ، ايقظت السنون ذكرى الدربونة وايامها فشده الحنين الى المرفأ القديم، عاد شيخا، وحين نزل مرابع الصبا جاء الميقات متاخرّا، فقد اقلعت زنكو، وكأنه والدربونة اصبحا نسيا منسيا، جاور حطام الديار واطلالها، اتخذ نزلا قريبا من نافذة الروح .

بعد رحلة طويلة أمضاها (مدرساً) في التعليم الثانوي ، أحيل على التقاعد ، ولم يعد بوسع الراتب الضئيل في ظل الحصار الامريكي الجائر أن يسدّ نفقات العائلة او يلبي متطلبات معيشتها إلا ليومين أو ثلاثة مما حتم على إبراهيم أن يبحث عن مورد مالي آخر يعينه على مواجهة الظرف الصعب ، فلم يجد حلاً أفضل من اللجوء إلى السوق ، فافتتح دكاناً صغيراً لبيع (الفاكهة والخضروات) ومضى في مشواره الجديد .

.. وعندما تخف حركة السوق يلتقط إبراهيم كتاب (أرض السواد) ، أو يعيد قراءة : (فردوس الكرخ) ، أو يقلب أوراق الطبري، فيجدد قراءة تأريخ بغداد. فالقراءة لديه عادة يومية لا يستطيع التنازل عنها وقد يجد وقتاً أثناء فترة القليلولة ليرسم لوحةً من إبداعاته الفريدة ، أو يزاول هوايته المحببة في فن (الخط)،الذي يفصح عن ذائقته الجمالية التي يحاول من خلالها التعبير عن روحه المتوهجة بجدليات الوجود الصاعدة والنازلة ، بعد أن إعتصرته الحياة بتجاربها الموجعة عاماً إثر عام ، وهو يحاول جاهداً أن يقاوم الابتلاءات من جبهة إلى أخرى ، دون أن يمنح الخيبة فرصة التفوق على عقله النقدي المبدع ، وقد أفضى إلي هذا الصديق الوفيّ خلال لقاءاتي به على مدى السنوات العشر الأخيرة ونحن نتحاور معاً في زاوية دكانه الصغير ، بأن المصائب التي عاشها طوال سنوات الرحلة الفائتة كانت حرية بالتضحية، وان هوية الكائن البشري قد لاتتعين الا بالمعاناة واقتحام غابات النار..

الدار الأولى

- ١ -

الحنين أول منازل الحب .

ومنه (الولَه) ، (التوْق) ، (التيّم) .

يعلق بالروح ، ويسري في أَغوار النفس .

لا ينحلّ أَو يذويّ ، إلا عند قارعة الموتْ .

والدار الأولى في ذاكرة (الشيخ) ،

دارَ النشأة ، التكويّن ، التشكيل ،

قد كان رضيّعاً في (المهدِ) .

تتبثّ حواسُ الطفل الخمس ، بين جدران الدار ثمة تعبر نحو فناء البيت المفتوح ،

يتلمس ماء (الحب) الرقراق ..

يتذوق (ملحَ) الأرض .

ويشم عبير (الأم) ، ورائحة (التكوين) .

ويجيء التشكيل بإدراك : الضوء . الظلّ . اللونّ . الصّوتْ .

اللوحة الأولى في الذاكرة البصرية هي باب دارنا ، كانت سامقة القامة ، مديدة عالية ، كما نخلة حفصة ناهضة فرعاء ، لكنها قديمة طاعنة ، أَوهن جناحيها الزمن ، .. مثقلة بإيلام الشروخ ، وعذاب التشققات ، ذات صرير متداعٍ كالنشيج ، يشبه الأنين ونوْح النواعير .

وتحت جلدها العتيق ظلال من الحناء وقمر الدين ، ندلف مجازاً (رواقاً) ليّناً منسرحاً .

ندلّف مجازاً (رواقاً) ليّناً ، حانياً ، منسرحاً ، كأنه يمتد إلى الخلود .

بهذا الإحساس الفائق . تصل الحوش ، وعندها ينفتح الفناء كالدعاء ، رحباً ، فسيحاً ، صاعداً نحو السماء ، تلك لوحة تشكيلية أخرى ، من الثنائية المتماسكة التي أَنشأتها الهندسة البغدادية بين :

- المرئي والمتتاليّ .
- الجزئي والكلي .
- النسبي والمطلق .

ينحدر هذا الطراز المعماري الأخاذ ، في الأصل من اللحظة الحضارية الخالقة في وادي الرافدين ، التي عقدت هذه الصلة الروحية الدافئة بين الأرض والسماء ، فالفناء المفتوح كما المعراج الروحي يمثل توق الإنسان صوب القبة الفيروزية بوصفها متسعاً وملاذاً .

- ٢ -

لم يكن الحوش محض فراغ كما يبدو ، بل هو فضاء ممتلئ متعدد الأبعاد ، بالضوء والحركة ، وهو أيضاً مركز الدار . وهو حجر الأساس الذي ينهض عليه البيت ، والعمارة الاجتماعية بأكملها .

هذا الحوش هو التعبير العبقري عن الصلة بالقيّم الاجتماعية

والروحية ، حيث كل الحجرات تفضي إليه ، وتتصل به ، بانشغالاتها، وأمانيها ، وهمومها ، وأسرارها ، وتلتقي في باحته كل الطرق والخطوات والأحلام .

وتدور العين في الأرجاء ، ترنو المعمار الباذخ ،

وجماليات : (الأقواس) ، (الليوان) ، وتيجان الأعمدة (الدلكات) ، (طوق) و (عقود) و (حنيات مجدولة) .. منحتها بغداد أشواق الروح ، وقبسات العصر العباسي ، فالدار تفيض بحنوّ اللمسات الساحرة ، وبهاء الإنشاء :

تتعشق الجدران برْفق الطين المفخور ، يتأتلف السقف بجذوع السرَّو والحصران ، فيما تتألق الأرض بالطابوق الفرشي .

في جهة الفناء اليمنى ، ينتصبّ (صبِ الماء) ، مستظلاً بأفياء (الطرقة) ، في منأى عن الشمس ، تترشح من تحته ، قطرات تتنزل زلاّلاً في وعاء فخاري (الناقوط) ، يدّخر الأهل ماءه لإعداد الشايّ .

فيما يرقد (التنور) عند نهاية رواق البيت ، تتناوب عليه عقب صلاة الفجر أمي وعمتي ، وفي الزاوية الخبيئة جوار حجرة الضيوف ، ما يدعى ببيت الراحة (الخلاء) ، أو ما يدعى بلغتنا المعاصرة (الحمام) .

أما (الاستحمام) فكان يتم في حجرة (الضيوف) ، بطريقة التعاقب الدوري بين العائلتين ، ولم يكن يحتاج أيّ من أفراد الأسرتين أكثر من صفيحة مياه ساخن وطشت وسيع تتربع فيه كالقرفصاء .

وينفرد بيتنا في (زنكو) بوجود (بئر) غائرة ، ذكرّ الناس من أهل الفحامة عنها قصصاً وحكايا .. وسمعنا أمراً عجباً . وإذا ما ألقي أحد منا شيئاً .. أو أسقط حجراً فيها .. ضجّ الأهل وصاحوا : لا تعبث فتدنس بئر البيت الطاهر ، خشية أن يحتجب الخير وتزول عن أهل الدار البركات .. أذكر يوماً ، أغضبت فيه عمي عبد الجبار ، وتسببت في سخطه علي ، إذ ألقيت في البئر – دجاجة – فانفجر ثائراً ، وأقسم بأغلظ الأيمان على معاقبتي جراء فعلتي الشنيعة التي لابد أنها أقلقت راحة الملائكة؟ فأمسك بقدمي بكلتا يديه وجعل رأسي يتدلى في حوض البئر ، عائماً في الفراغ الموحش ، والظلمة الباردة .. امتلأت نفسي بفزع الموت صرخت وبكيت بكاء مرا .. وأنا أهيب به وأتوسل إليه .. ولم يستجب لاستغاثتي أو يرق قلبه لحالي .. صراخ أمي وعمتي وعويلهما ظل عنيداً ، إلى أن اشترط علي أن أكرر كلمة (توبة) مثنى

وثلاثا ورباع ، عندها فقط أخرجني من جوف البئر وهو يتوعدني بالثبور وعظائم الأمور إن حاولت العودة إلى فعلتي الآثمة ! .. امتص الرعب القاتل دمائي وشعرت بأن قلبي توقف تماماً وتحولت لحظة الفزع الأكبر إلى مخاوف وكوابيس تنتابني في منامي فيما استقر في عقلي الباطن هاجس السقوط في قاع البئر فأثب من فراشي فزعاً مرتاعاً . ولم ينفك الخوف عني حتى بعد أن تجاوزت العقد السادس من عمري . فلازلت وحتى الآن أهاب صعود المرتفعات ، ولا أجرؤ على النظر من الشرفات المفتوحة أو إن اضطررت إلى ذلك فإن قلبي ينقبض وأصاب بالهلع والدوار والغثيان .

- ٣ -

اتخذت عمتي (فتحية) وأمي ، من سقيفة السلم الحجري مكاناً لطهَيّ الطعام ، بعد أن صنع العم عبد الجبار بيديه الماهرتين محملاً خشبياً ، من ثلاثة رفوف ، واحد منه للأواني والأطباق الخزفية ، والثاني للقدور ، فيما خصص الرف الثالث للسكر والشاي وملح الطعام ، والتوابل . وفي الزاوية اليمنى من السقيفة ، أودعت الصواني والقدور النحاسية الكبيرة الحجم وفي الجهة اليسرى ، أدوات الطبيخ : (البريمز) وزجاجات خضراء وحمراء معبأة بالنفط الأبيض .

- ٤ -

كانت حياتنا المنزلية بسيطة للغاية يغلب عليها الطابع القروي ، حتى قبيل نهاية الأربعينيات ، فلم يجرب أحد من أهلنا الكرسي أو منضدة الطعام ، فالأرض نظيفة على الدوام ، كانت لنا مائدة وفراشاً ، وعند موعد الطعام تلتئم العائلتان حول صينية نحاسية حمراء كبيرة .
وقبيل أن يقترب العقد الخامس بقليل اقتربنا نسبياً من الحداثة وحياة المدن ، عندما اقتحمت حياتنا متغيرات متلاحقة :
فقد أضيئت لأول مرة الحجرات الثلاث بالمصابيح الكهربائية ، وتلاها (صندوق الثلج) ، الذي عزف عن شرب مائه (فاطمة) ، لأنه يضرّ بالصحة ويتلف الأسنان .
وجيء بعد ذلك بالراديون ، كما كان يُلفظ ويسمى في الدربونة ،وقد أحدث في الأيام الأولى انقلاباً في حياة أهل الدار ، بين رفض فاطمة له وإقبال الفتية والأولاد عليه ، ونحن نرتقب مع إطلالة الشمس صوت صفير (بلبل) الصباح ، تعقبه تلاوة قرآنية من ترتيل كبار المقرئين في الزمن الجميل ،
فيما تصدح في الليل الموسيقى ، وأغاني (صديقة الملاّية) ، (سهام رفقي) ، (محمد القبانجي) ، وبصفة خاصة (عزيز علي) ، الذي كان لأغانيه صدى عظيماً في صفوف الشعب . ولعله في مقدمة موكب التنوير الاجتماعي والسياسي وهو يدعو إلى العلم والعقلانية ونبذ الخرافات مثلما ألهب حماس الفتية والشباب ، وهو ينشد للوطن والوحدة العربية وفلسطين ، وكانت

المروحة المنضدية رابع هذه المتغيرات في دار زنكو ، بعد أن أعدّ لها العم عبد الجبار مكاناً في (الطارقة) واحتشدنا قبالتها ونحن في توق النسيمات الباردة عند اشتداد الهجير ، وصعود حرارة الطقس ، نأوي إلى (الطارقة) ، أو نلوذ بمسرب الهواء البارد (البادكير) ، عسى أن نحظى بنسيمات منعشة ، وقد نلقي بمياه البئر (الباردة) على أجسانا ، حتى تنتقع (الدشداشة) وهو أخر الحلول التي نعمد إليها ، صبحي ويحيى وأنا ، فيما كان النزول إلى (الشط) طوال فصل الصيف طقساً يومياً ، لمتعة السباحة في البدء ، وترطيب الأجساد ، ومقاومة لهيب الظهيرة .

– ٥ –

تنفتح على الحوش ثلاث حجرات :

الأولى : ديوان للآتين من الأهل والأصدقاء ، وأقام فيها (بريسم) ضيفاً ، ضمت شيخوخته الطاعنة ، وذكرياته القديمة ، وبعد رحيله ، عادت مرة أخرى لتتغمر بالمؤن والضيوف والأمتعة.

الثانية : تشغلها عائلة العم عبد الجبار ألطه (خال أبي) .

الثالثة : وهي الأصغر مساحة ، تضمّ أسرتنا (أمي وأبي وشقيقاتي الثلاث ، وأخي الأصغر سعد وأنا) .

الحجرة متساوية الأبعاد ، سقف عالٍ ، وجدران تنشغل بخمس معلقات :

١- مرآة بحجم الوجه .
٢- فانوس .
٣- عليجة القرآن .
٤- صورة أبي بلباس الجندية .
٥- حصيرة ناعمة مثبت عليها مشجباً للملابس .

وفي حجرتنا شباك ، تنبعث عبر مربعاته الزجاجية الملونة ، الطيف الشمسي .

وعلى أرض الحجرة يرقد صندوق (الحصند) ، معبأ بأردية الشتاء ، وفي الجهة المقابلة ، محمل الفراش ، تنتضد فوقه الأفرشة واللّحف . وزرابيٌّ تُبسّط في فصل الشتاء اتقاءً لرطوبة الأرض وبرودة الجوّ .

في الشتاءات الباردة ، والأمسيات المطيرة ، نمكث في الحجرة ، ونلوذ بزاوية غائرة منها ، تلتمس الدفء حول (منقلة النار) ، وبرفقة (فاطمة) نرود آماد الليل ، وهي تقصّ علينا حكايات طويلة ، من ذاكرة الأزمنة البعيدة .

وفي هذه الحجرة ولدّ كاتب السطور في ١٩٤١/١١/٥ على يد (هوّية الحالوب) ، وحين فتح عينيه ، كانت (زنكوّ) كما الفحامة ، منشغلة بهموم الوطن ، وبأخبار الحرب ، وبمواد التموين ، وبالجدل الدائر حول النتائج الأسيفة التي انتهت بها وإليها ثورة (دكة) رشيد عالي الكيلاني ، وفي العام نفسه ، أطل على الحياة عدد من الأقران والرفقة والأصدقاء :

- عبد الله زيدان .
- غنية عبد الجبار .
- مجودة عمران .
- ربيع المشمش .
- صبري علي العلكة .
- زهير عبد الرازق .
- إرحيم محمدين .
- صلاح حميد الغناش .
- سليمة عبود الظاهر .

وشهدت الفحامة في ذات السنة ولادة :

- رياض عبد المنعم (الكركة) .
- زهير عبد الحميد .
- نوري شفيق .
- محمد الكسار .

وتحت جناح التراحم والعلاقة الحميمية ، والمحبة الخالصة ، نشأ هؤلاء وعاشوا طفولة مفعمة بالبهجة والغبطة والمسرات ، لعبوا وكبروا في (الدربونة) وفي أطراف المحلة الأخرى ، لم يفترقوا ، ولم يتباعدوا طوال سنوات الطفولة والصبا ، وأيام الشباب ، تلقوا علومهم الأولية في (كتاتيب) ، ملاّ حميد ، ملاّ حماد ، وانتظموا في صف واحدٍ ومدرسة واحدة في (الزوراء) الابتدائية ، ومتوسطة (فيصل) ، وثانوية (الكرخ) .

هؤلاء رفقة الزمن الجميل ، تآزروا على الدوام في الجدّ واللعب ، ورغم تغيّر الأحوال ، وتفرق المنازل ، وتباعد الأمكنة والديار ، لم ينقطع التواصل ، ولم تتوقف اللقاءات ، حتى بعد أن تجاوزوا العقد السادس ، من أعمارهم ، وقد تعاهدوا منذ البدء على أن الشيء الممكن الوحيد الذي ينأى به الواحد عن الآخر هو الموت ، وكان الغياب هذه المرة أشد وطأة من الموت ، هو الفاشية الأمريكية ، بعدوانها الأثيم على الوطن واحتلال العراق ، هذا الزلزال

المأساوي الذي أنزل الفجيعة في العقول والعكوب ، وبعد أن أصبح رأس كاتب السطور مطلوباً على لوحة الأعداء والأرباب عن القتلة المهرجين ، اللقطاء . فاضطر أن يلقي نظرة الوداع الأخيرة على مرابع الفحامة وشارع
حيفا ، ويضم إلى صدره إبراهيم وزهير وخطاب .
يكاد الصبي الذي أصبح شيخاً ، أن يلّم بأيام طفولته كلها ، بكل ما تنطوي عليه من تفاصيل فلا تدع ذاكراته لحظة أو نبضة تسقط منها ، فالوجوه والقسمات والأحلام والرؤى الجمة ، والمغامرات المثيرة ، والحياة السعيدة بين حنايا (زنكو) وخارجها تمتد كلها خطاً حميمياً على طول العمر وآماد الزمان ، فلا تخطئ عين الصبيُّ خارطة الطرقات والبيوت ومأوى الكائنات .

ويستذكر أيضاً تلك اللحظات النفسية المتوترة عبر مغامرات البحث عن كائنات الليل ، ورعب الظلمات ، ونحن نجوس أرض الطمة ، وأم العصافير ، والخرائب المهجورة .
هكذا تجيء الطفولة كالمرايا المتداخلة ، لوحة بانورامية الأبعاد ، لا حدود لمشاهدها ، وهي تنفتح على الحياة القصيّة ، فتظلّ على وقائعها، خليّة إثر خليّة ، وحكاية تلو أخرى ، والعين كما الفؤاد والعقل ، في المكان والزمان ، منظومة متوثبة تلاحق اللحظات الهاربة أمام الصبي ومن حوله ، من مرئيات وأحداث .
وتتسع الحواس فتلتقط من قاع الذاكرة العميق ، نبرات أصوات : (بريسم) ، (حاج مشمش) ، (إبراهيم الجرمط) ، (نورة) ، (صديقة) ، ويكاد يشّم عبير المسك والزعفران وماء الورد ، ينبث من التكايا ، والأضرحة ، ومن مراقد ومقامات الشيخ معروف الكرخي ، والجنيد البغدادي والملاح ، وسلطان العاشقين ، وحبيب العجمي ، وتمتلئ روحه بعبير أمومة (زنكوّ) ، مليكة ، زكية الكردية ، حفصة ، صديقة، صمدة المحنة ، وحمزية .
ولم يغب حتى اللحظة القائمة مذاق حلوى وشكرات ذلك الزمان (أصابع العروس ، جعب الغزال ، بيض اللقلق) ، وتنضم إلى الحواس الخمس ، مدركات العقل ، وهو يستعيد ليالي فاطمة وحكاياتها حول (منقلة النار) .

– ٦ –

في بادئة الصبح ، يّردُ الدار صوتُ موسيقي باذخ ، تعزفه موجات بلابل وعصافير ، تتنافر ما بين السطح وجرار الماء والشرفات .
وعند العصر تهلّ القمرات أسراباً ، ويليها طير الفختي . تحطّ ، تثبتّ، تأتي (حِبَ) الماء ، فيما تنثر فاطمة القمح في أرجاء الحوش ، وفوق الذهب المسبوك (الفرشي) .
.. في آخرة العصر :
يشدو الطير الفختي ترنيمة أحزان العالم :

"يا كوكتي وين أختي ؟!" .

فيجيب الصوت الحاني :

"بالحلّة ..

" وستشرب ؟

"ماذا تشرب" ؟!

"ميّ الله" !

ويعود (حنين) الفختي شجناً يغمر روحي ،

أسأل أميَّ عن سرّ الحزن المخبوء ، ومعنى (الفْوح) في لغة الطير .

قالت : الطير كما الإنسان ، يبحث عن رفقته ، أو أخته .

فالشوق مكابدة وعذابْ .

والنأي إيلام للأحبابْ

والتوق هديلُ وبكاءْ

وتطوق أسئلتي أمي :

لم يختار الفختي هذي الدار دون سواها ؟!

فيحطّ في هذا الوقت ؟

وإلى مّ يشدّو وينوح ؟!

ولماذا يّنسلّ الفختيُّ عند غروب الشمس ؟!

وتلملم أمي أسئلتي في إيجازٍ واحد :

"الطيرُ يأنس هذا البيت الآمن ،

فيجئ إلينا وقت صلاة العصر .

- ١ -

يحظى الطقس الاجتماعي النابع من الفطرة الطبيعية ، بالتوقير والإجلال ، كما لو كان فرضاً دينياً واجباً .

فالألفة الحميمة بين كائنات الدربونة كانت تتعيّن ماهيتها الإنسانية ليس بمحض المشاركة في الإرزاء والأفراح ، بل بوصفها بديهة اجتماعية مسلماً بها ــ تتدرج في التقاليد اليومية الشائعة .

.. ولم يكن (شاي العصر) ذي المراسيم الحانية إلا إحساساً رفيعاً بمعنى الصحبة والمجاورة والاندماج الكلي داخل الزمان والمكان ، كتجربة خلاقة للحوار اليومي بين الأمهات وبصحبتهن الصبايا والأولاد .

.. يبسطن الحصران وفوقها تتناثر حشيات وطيئة يجلسن عليها في المكان الأثير لديهن في (آخرة الدربونة) . تبتدئ المسامرات بالشأن العائلي والهموم المنزلية ، ثم تنصرف إلى الطرف ، المحلة والأمور العامة . كل أم تبدي رأيها ، أو تقول ما لديها من أخبار . يفتح طقس شاي العصر نافذة خبرية وسيعة لما يجرى في الفحامة وقد تتعدى الأنباء إلى أطرافها وما يجري فيها من حوادث وعاديات .

.. وأول الأمور إلحاحاً على إهتمام الجليسات ، الولادات الجديدة ، الخطبة ، الزواج ، المشاكل الزوجية .. وبنفس الحرارة تتم مناقشة أسعار المواد الغذائية وكلف الحياة المعيشية ، والمفاضلة بين السوق (الصغير) ، وسوق (العجيمي) ، ..

.. وقد تجرى أحاديث هامسة ، فتوشش إحداهن بأذن الأخرى همساً بما لا يجب أن تسمعه البنات والصبايا ، أو يقال أمام الصبية والأطفال من أمور خاصة أو أسرار نسائية . لم يشأ الصبيّ أن تفوته متعة (اللمة) والإصغاء إلى مسامرة الأمهات ، فيتسقط الأحاديث لمعرفة ما يروى وما يقال ، .

.. وتعد حفصة السيدة الأولى ، في طلاقة اللسان ، وطراوة الحديث ، وأشد الأمهات جاذبية وحضوراً في مسامرات شاي العصر . تليها زكية الكردية ، وصديقة ، فطومة ، ملكة ، بطوشة – أما أمي وعمتي فتحية ومعهما نورة ، فأنهن يؤثرن الإصغاء – فلا تدلي إحداهن برأي أو تعليق إلا نادراً .

.. أما الحكيمات من جداتنا فاطمة، والحاجة حمدة المحنة (أم جميل) ، وحمزية ، وماهية (أم حميد) ورابعتهن حمدة النعيمي (ذات القلب الضحوك ، لا تكف عن إنعاش الحوار بمداعباتها المرحة) . فيقتصر حضورهن على الموعظة الحسنة واسداء النصيحة .

.. ولا يتوقف حديث إمهاتنا عند إنحسار الشمس إلا لحين وجيز ، فثمة وقت تال يتصل فيه حوار العصر بالليل ، عقب صلاة العشاء ، حين تقترب السطوح من بعضها في الصيف ليبدأ طقس آخر للحوار في (لّمة التعلولة) فتفيض القلوب بالبهجة والانشراح ..

– ٢ –

تقترن (الزكريا) بانتشاء روحي خليط من الأشواق الطفولية والمرح السعيد.

.. وتبدأ المناسبة بمراسيم خاصة ، بعد الانتهاء من صلاة المغرب . بعد أن جرى الإعداد لها بيومين في الأقل فثمة العديد من الجزئيات التي لابد من توفيرها من الأسواق نحو الشموع والأباريق ، والشكرات و (الكرزات) وغصينات الآس والريحان . فضلاً عن إعداد وجبات خفيفة من الأطعمة والمقبلات .

.. والأقبال على الاحتفاء بالزكريا لدى الأطفال قد يقترب من بهجة العيد .

.. وفي دار زنكو يضج الأطفال بالمرح والصخب وهم يتعجلون نصب الصينية ، وسط الحوش. التي ما أن تضعها أمي حتى نحيط بها ونحتضنها بحرارة بالغة (شيقيقاتي وانا) ونحن نمتلئ بغبطة روحية ساحرة ، والصينية على سعتها تضيق أحياناً بالأباريق وبأطباق الأطعمة والمحلبي والكرزات والشموع والحلوى ،

وغصينات الآس والريحان ،

.. وتجئ صينية بيت عمي تجاورها صينية نورة القدسي والرابعة خاصة بدار جميل المشمش

.. حيال هذه اللمة الكبيرة ، ينغمر الحوش بأنوار متألقة تفيض بها عشرات الشموع ، العسل والكافور فيما يمتلئ المكان بعبق الآس . وعطر الرياحين .

.. يتوالى تبادلّ الأطعمة مع الجيران وتمتد على (الفرشي) مائدة عشاء طويلة للآتين والمقيمين .

.. وهكذا على بساط واحد وأمام آنية طعام واحدة تتناول الدربونة الملح والزاد .

يستعاد زمن الغبطة عاماً بعد عام ، أكاد أشم الآن عبير تلك الأيام ، واستعيد معها الأوقات العامرة بالألفة والسخاء والدفء الإنساني وبتلك اللمسة الحانية وهي تبسط السلوك البهي من المحبة الصافية .

.. هكذا كانت الحياة في الفحامة سعيدة رخيّة ، وارفة الخيرات ، وهكذا أيضاً تمضي وتنقضي أزمنة البهجة عند إنتهاء الطقس الجميل وتداعي الشموع بالانطفاء الأخير ، فيعدو الصبية في الفضاءات الوسيعة يثبون ، ويمرحون وينشدون بصوت مفعم بشجن الوداع والحنين :

" يا زكريه .. عودي عليَّ كل سنة وكل عام ننصب الصينية " !

– ٣ –

ينضمّ الصبية في ليل (المحية) صفوفاً من جهات الفحامة الأربع ويطوفون بالطرقات والأطراف ، وهم يهزجون بانشراح وحماس : " من فوق سطح العالي ، بَّينْ أبو جوريةْ الطاسةْ حمره
والشعر عاريّه " .
.. أصداء الاهزوجة تتردد في جنبات : (السعدية ، جميلة ، الشيخية ، الطّمة ، المختار ، المشاهدة ، الشيخ صندل ، الفلاحات . سوق حمادة ..)
.. تلك واحدة من مقدمات الاحتفاء بـــ (المحية) التي تخفق أنوارها الروحية في حنايا الأفئدة ومن فوق المآذن والقباب .
.. تتدفق مرئيات الليلة الكبيرة تنفتح كالمرايا على سعة الأفق اللامتناهي لواحدة من إحتفاليات الطفولة التي تفيض بموجات عنيفة من الصخب والأنس ، يتداخل المرح فيها بالمفرقعات وطبول البهجة بـــ (زنابير النار) ..
.. الليلة الكبيرة التي نغالب فيها النعاس ، ونقاوم التعب ، نظل كما النحلة تنتقل هنا ، ونرقص هناك ، نهزج مرة ، ونشدّ (الدبكة) مرة أخرى .. وتأخذنا (الهوسات) الحماسية إلى أقصى الأمكنة ما وراء الفحامة ونحن مزودون بأنواع عديدة من مقتنيات (المحية) نحو :
(الطرقات ، البوتاز ، الزنابير وغيرها من لوازم الليلة الساهرة) ..
نمضي إلى (تاضي) أشهر بائعة في الفحامة وربما الكرخ لمقتنيات المحية ، في منزلها العتيق في طرف (السعدية) نبتاع منها – زنابير – بأحجام مختلفة ، وأيضاً البوتاز – ونبدأ الجولة الأولى في قذف الطرقات وكرات البوتاز ، فيما تشق زنابير النار الظلمات وكثيراً ما تعلن في تلك الليلة الحرب فتخف المنصورية .. تغزو الفحامة أو نأتيها نحن ، نتراشق بكرات البوتاز ونعود من غزوتنا جذلين سعداء ونحن نردد :
" يا محيّه حيّناچ
زنبورهم فاشوشي " .
.. ونطوف بمحلات وأطراف الكرخ : الحصانة ، كهاوى عكيل ، سوق الجديد ، خان المواصيل . رأس الجسر) .
كم لعبنا ، وأنشدنا ، ورددنا (الهومسات) حتى ينقضي الليل ويمضي ..
وتصيح الديكه .
وتخّف الحركة في الطرقات وتذوب الأصوات ونقاوم النوم حتى مطلع الفجر فتتصهر بين أيدينا (عين الشمس) حان الوقت الآن لوداع الليلة الكبيرة فنردد نحن الصبية بصوت مفعم بالحزن والأشجان :

(يا محبّه حيبّني ترّه أمي متخليني يا محيه حييناج والعايش الله يشوفج) وبهذه الكلمات الحزينة، نودع أمانينا الصغيرة .. ونعود نحلم مرة أخرى .

- ٤ -

.. في السابع والعشرين من شهر رجب ، تطوف الصبايا الصائمات حول مرقد الشيخ حبيب العجمي ، يرفعن دعاء الفرج العاجل همساً منبثاً بالنجوى يتعهدن الوفاء بنذورهن .. ويظل حبل الرجاء ممدوداً بين الأفئدة المنغمرة بالتوق والأشواق وأفق الغد الآتي. وعند الانتهاء من طقس الزيارة توقد العذارى شموع النذور في كوى المرقد ويضمخن جدران حبيب العجمي بالحناء وهن يرددن :

"يا حبيب العجمي جينا نزورك

.. جبنا لك شمعة بطولك .

.. ثمة ينحدرن إلى النهر ، يتناثرن ما بين الشاطئ و (المسناية) وتحت الجسر العتيق زرافات ووحدانا ، يتسامرن ويتأملن غروب الشمس ، وعند نزول الليل المياه ، يؤبن إلى بيوتهن .

- ٥ -

يبتدئ طقس زيارة خضر الياس عصر أيام الخميس ، ثمة نسوة يودعن أمنياتهن ، أحلامهن فوق لوحة خشب صغيرة حاملة شموع النذور الملّونة كما أصابع العروس ، يدفعن بها إلى النهر ، فتطفو فوق صفحة (دجلة) بانسياب وليونة تضم شموعهن حلماً معذباً ، أمنية عزيزة ، جرحاً غائراً ، أو أمراً مكتوماً في صدر إمرأةً ما ، لعلّ الغائب يظهر ، أو يأتي في يوم ما ، فيطفئ أشواق الاعوام المنقضية ، أو أن النذر يهب العاقر مولوداً أو يخفق قلب الطرف الآخر بالحب ، . والعانس دوماً تنزل شط خضر الياس ، تبسط كفيها بالشمع المنذور ، وتكفكف دمع العين ، تحلم بالآتي . تطفو لوحات الضوء حاملةً أحلام العشاق والبؤساء والمقهورين .

- ٦ -

إذا كانت الطاعة هي جوهر رمضان في الامتناع التام عن الأذى وكف الجوارح وعفة اليد والقلب واللسان ، ومداومة التلاوة ، وإقامة الصلاة ، والتهجد والأذكار ، والحدب على اليتامى ، وإطعام المساكين وأبناء السبيل .. إذا كانت كل هذه المعاني تنطوي على شهر القرآن ـــ فإن لدى الصبيّ دلالات أخرى حسيّة مباشرة أولها : هو (الطوب) أي مدفع الإفطار ، إذ تتحول الدقائق الأخيرة (التي تسبق المغرب) إلى توْق مقيم ، فنرتقي السطوح أو نقف عند رأس الدربونة ، وكلنا آذان صاغية لسماع صوت المدفع إيذاناً بالإفطار ، فنهرول نزف البشارة للصائمين .

.. إثر تناول طعام الإفطار ينسلّ الصبية خفافاً ، نقرع أبواب الفحامة ونحن ننشد الاهزوجة الرمضانية : " ماجينه .. ياماجينه حلّي الجيس وانطينه "

.. أما الدلالة الأخرى فتنصرف إلى جزئيات المائدة الرمضانية التي تختص بأطباق مميزة قد لا تقدم في الأيام العادية ، نحو :

" الشوربة ، كبة حلب. المحلبي ، وعصير (تمر هندى) و (قمر الدين) وحلويات (حجي جواد) . خاصة (البقلاوة والزلابية) منها ، التي يقترن وجودها وتوافرها على مائدة رمضان ، ولا يزال التأثير الإيحائي لهذه الصنوف من المأكولات بمذاقها ولونها وعبقها ، رمزية الفرض البهيج . و(اللّمة) حول مائدة الإفطار واجتماع الشمل العائلي في وقت واحد ومكان بعينه ، يشيع دفئاً إنسانياً ، يجدد العلاقات الأسرية ويوطد الرابطة بين الآباء والأبناء . وفي أيام مخصوصة من رمضان ، تقيم فيها دربونة زنكو مائدة الإفطار لبنيها كافة ، وقد تدعو إليها ، بعض الأصدقاء والأصحاب من الأطراف والمحلات الأخرى .

تبتدئ وتتوالى الزيارات بين العوائل بعد الإفطار ، ويجري تبادل أطباق الأطعمة فيما بين البيوت .

وتتميز أيام رمضان عن غيرها بمذاق ونكهة ولون فهي تفوق ببهجتها الأيام الأخرى ، إذ تتواصل الليالي وتمتد مسامرات (التعلولة) بين اللعب والفرجة والحكايات .

ويرفع أولو أمور الصبية قيود الوقت ، وقد يقتادونا معهم إلى مقهى أحمد الكاظم لحضور مباريات (المحيبس) التي تقام بين الفحامة ومحلات الكرخ الأخرى .

– ٧ –

تخف زنكوْ نحو إشاعة مسراتها ، فتضوع رائحة (الكليجة) الزكية نفاذة في أرجائها ، إيماءة الترقب لاطلالة – الهلال – في سماوات الفحامة . ما بين ليلتيْ (عريف) و (عرفات) تنشرح الصدور ببشارة البهجة الآتية في الصباح . ينشغل الصبية بهموم الغد السعيد ، نحو إقتناء (صندل) جديد و(دشداشة) بوبلين ، وحلاقة (على المودة) بين يديْ العم حسين (المزّين) والغسلة التاريخية في حمّام (شامي) فيما تنهض الأمهات بالحملة الكبرى الساعية إلى تجديد مشهد الحياة من حجرات الدار والحوش والأروقة مروراً بالأبواب والنوافذ والشرفات.

تتواصل الحملة حتى آخرة الليل في تنظيف وغسل حوض الدربونة .

هكذا تضع الأمهات لمساتهن الناعمة على (زنكو) لتبدو في الصباح الآتي ، نضرة متألقة .

في تلك الليلة ، يتقلب الصبيّ في فراشه بين "الإغفاءة اللذيذة والأحلام الصغيرة وهو يضم إلى صدره حذاء العيد!

العيد .

-١-

قد نسبق الفجر .

فنوقظ الشمس .

أو نشرق معاً .

ألق وضئ يشع من رحبات الدار وبيوتات الدربونة . الوجوه مستبشرة الأيدي مبسوطة بالحلوى والسلام و (العيدية) . نرفل فرحين بدشداشة البوبلين (المقلمة)،. يخفق (الدرهم) في جيوبنا ، مفتاح السرّ إلى دنيا المتعة.

٢

عند انقضاء صلاة العيد يصطحب الآباء الأمهات يمضي الصف الطويل مهيباً صوب مقابر الشيخ معروف والتل الأحمر والشيخ جنيد يطوفون بين الأضرحة والمراقد . يقرأون الموتى السلام .

يوقدون أمام قبور الأحبة شموع الكافور .. ويرتلون سورة (ياسين) .

٣

السعادة في كتاب الطفولة تعني الظفر بالأمنيات الصغيرة ، دشداشةً مقلمة وحذاءً جديداً ، وعيدية توفر للصبي حرية الخروج المغامر صوب جهات الكرخ الفسيحة، لإشباع الرغبات المؤجلة . والسعي لإجتياز حدود العالم اليومي إلى (الجادة) ما وراء الفحامة ، للفوز بمتعة العروض المدهشة في (وكفة الغنم) جوار الشيخ معروف ، هناك فقط نرى ونلمس العيد بلحمه وشحمه .. هناك تنتظم حلقات (رقص الجوبي) والمبارزة بالسيوف (الساس) ، و (مزيقة جوهر الشعّار) .. ولا معنى للعيد ما لم نحظ بدورات متتالية في (دولاب الهواء) ومرح المراجيح . وفي هذا المهرجان يحين الوقت لتحقيق (الأمنيات الكبيرة) حيث نمتطي صهوة خيول العربات الضامرة ، الهزيلة ، نرود بها الأرض (المتربة) وقد تعدو بنا نحو أسوار مستشفى العزل (الكرامة) .سعداء ، ونحن نقضم (لفة العنبة والصمون) .. ولا نؤدب إلى الفحامة أو نأوى إلى منازلنا إلا بانقضاء النهار ، أو حين تجفّ من جيوبنا النقود .

٤

تأججت أشواق العبور إلى كوكب الرصافة البعيد ، مذ ألقى فتيان الدربونة (الجمرة) في أفئدة الصبية عبر خبريات (صبحى ، نزار ، عزاوي ، جبار الحفصة) الذي جاسوا ساحة الباب الشرقي وحدائق غازي ، وبارك السعدون ، فذكروا قصصاً وحكايات شتى ، عن سحر تلك الأمكنة وعجائب أحوالها .

٥

عبر الصبيّ برفقة صبحي عبد الجبار جسر الشهداء ، صار الأثنان في ضفّة الكوكب الأخرى
.

ورأيت أمراً عجبا ،عالماً قائماً بذاته ،محكم التنظيم .

الشوارع معبدة ، ممدودة بلا إنتهاء ! وحين توغلنا في طرقات (السعدون) و (البتاوين) بهرت الصبي منذ النظرة الأولى القصور المنيفة ذات الأسوار العالية ، والحدائق الغناء. والصمت المهيب :

بدت المسافة مفارقة في المكان ، بين فحامة الكرخ وأحياء الباب الشرقي .

قد يجد المرء تماثلاً نسبياً في بعض الجزئيات الصغيرة ، لكن سرعان ما تتسع الفروق في الكليات والأصول مما يستحيل على عقل الصبيّ إجراء أية مقارنة بين (صوب عكيل) و (الصوب الكبير) من حيث الانتقال المفاجيء في طبيعة المعاني والمشاهد . فالتقابلات متباينة تماماً تقيم فصلاً وتمييزاً بين تقاليد بيئة محافظة شبه بدوية مقابل عالم حرّ مفتوح ، ويبتدئ هذا التقابل في تفاصيل صغيرة أيضاً – الملابس (الدشداشة) إزاء (الشورت) والقمصان الملونة ..

وهكذا تتوالى الفروق بين :

- الجقجة قدر – النستلة .
- الصندل – حذاء الجم جم .
- على العودة – لكِ ستّكْ .
- البروس – تسريحة البكلة الامريكية .
- صندوق الدنيا – السينما .

٦

عندما نزلنا الباب الشرقي أول مرة ، ظن الصبيّ بأنه آت إلى كوكب آخر ــ فالرصافة. مبهرة ، ملّونة ، سريعة الإيقاع .

الضجيج يخنق الامكنة . المركبات تتوالى ، والحافلات تتدفق ، الأغاني كما الفوضى مختلطة ، صراخ مؤذ . التدافع بالمناكب لاقتناص متعة ما ، تفاصيل متداخلة :

حشد من العروض والاهتمامات ،

- شربت (عصير) بألوان الطيف الشمسي .
- باعة جائلون (حب . باسورك ، سميط – بادم – حامض حلو) .
- أطباق (الداطلي) ..

- عربات (اللبلبي) .

٧

.. الأرصفة تضيق بالمشاة ، يتزاحم الناس. غادين وآتين : مواكب من البشر متأنقة تحتشد بحماسة عند شبابيك تذاكر السينما ، يتوالون كتلاً متراصة ، مهتاجة تبحث عن شئ ضائع .. أغان متفجرة بأصوات مبحوحة ، تتردد أصداؤها في الشوارع والمقاهي والمطاعم .. أقرب إلى الصيّاح بلا لون ، عسيرة المذاق ، يرددها فتية مشاغبون يقودهم طبال بعين واحدة .

.. على ناصية سينما (روكسي) ثمة إحتفالية شبيهة بالسيرك شباب مهرجون ، يضعون (كلاوات) ورقية مزركشة يتقافزون كالأشباح ، يصفقون بحرارة ويصفرون لأحدهم وهو يقوم بحركات (بهلوانية) تحف به جوقة من نافخي الأبواق . الرقص عند حافات الشوارع ، ينزلون إلى الطريق العام ، يهزون الأكتاف والرقاب بمهنية متقنة تثير فضول الناس .. وتتسع حلقة (الفرجة) .. فيما يزداد العرض غرابة في آتيان حركات منفلته من أية قيود أو إحتشام ، تقترب من العبث الطائش .

.. وهذه زاوية من زوايا كثيرة رصدتها عينا الصبي في أولى تجارب العبور إلى كوكب الرصافة ، .. فيما كان للعيد الكرخي في الاربعينيات لون آخر ، إذ يبدو وديعاً ، لّيناً ، فطريّاً تلقائياً وجميلاً . وهو صورة مفارقة أخرى ، غير ليبرالية بارك السعدون ، وانفتاح البتاوين ، وحرية حديقة غازي .

٨

العيد في مرابع الكرخ ، متعة طبيعية باذخة المعاني ، تفيض مسراتها بقلب الصبي ، وتشبع رغباته الذاتية حد الامتلاء ، عبر أنس الصحبة ودفء الصداقة ،

- بهجة الـــ (نحن) .
- جوبي (الوكفة) .
- الأهازيج الجماعية .
- الخيل والأباعر .
- لعبة الساس .
- المراجيح البدائية .
- الربابة .
- حكايات عنترة وأبي زيد الهلالي وعبد الله الفاضل الجبوري ،

هكذا يجري التمايز بين عالمين تضمهما عاصمة واحدة ، يفصل بين (الصوبين) نهر واحد ، أو يربط بين ضفتيهما الجسر العتيق .

٩

الـــ (نحن) ألقّ (اللّمة) والألفة بين الأقران والخلان ، في مقابل فردية (السعدون) وما جاورها ، والـــ (دبكة) إزاء رقصتيّ (السمبا) و (الرومبا) .

.. هنا الكرخ : ربابة عذبة الأنغام ، عتابة مفعمة بالشجن العميق هوسات

١٠

الجموع .. وهناك في مربعات (الصوب الكبير) مهرجان الصخب العجيب!

١١

بين حقول الورد وتحت أفياء الشجر العتيق ، والأرائك الخضراء ، تنبسط حدائق (بارك السعدون) النضرة الغنّاء . وكأنها الجنة ، وارفة الظلال فيها من الأزهار من كل لون بهيج ، يؤمها أهل بغداد من كل الجهات والأطراف . عندما ورد الصبي حدائق السعدون عقدت الدهشة لسانه وأتسعت مديات الحاسة البصرية ذهولاً ، وانتقلت من جماليات الورد وفتنة العشب وعبق الآس والريحان ، إلى حسان غيد راكبات درجات هوائية يختلن زهواً وخيلاء لوحدهن ، لا يأبهن بأحد ولا يكترثن لنظرات الناس من حولهن .

.. وثمة نساء حاسرات الرأس ، بلا (فوّط) أو (هباري) أو عباءات. كاشفات الصدر والسيقان ، تتصهر على خدودهن وشفاههن حمرة متوهجة بلون حب الرمان .

إنهن (موديليات) ، سافرات ، .. وتحت ظل الأشجار الباسقة ، وعلى الأرائك الخضر ، يتجاور الذكر والأنثى ، تتعانق الأيدي بشوق وتتحدث العيون .

١٢

.. في الزمن الأول الذى شهد أول زيارة للباب الشرقي ، تناولت وصبحي ولأول مرة ، شطائر لحم تدعى (السندويج) ، مما لم أسمع بنبأها يوماً إلا من فتية زنكو ، ولم أتذوق طعمها قبل أن أنزل المكان العجيب .

.. وسيتحول (السندويج) بعد حين إلى ما يسمى (الهامبرغر) .

١٣

.. أزالت كشوفات كوكب (الرصافة) ، الغموض عن مديات الطبيعية وامتدادات الكوْن ، وإن وراء الجسر العتيق دنيا أخرى ، مزدهرة بالسحر والفتنة ، وأن من لم يعبر إلى ضفة العالم الأخرى ، ويطوف بأرجاء السعدون والبتاوين والقصر الأبيض ، فأنه لم يعش إلا بنصف ذاكرة ولم يّر الحقائق إلا بعين واحدة .

.. وقد أثار الصبي حين عاد من رحلة الباب الشرقي ، أخيلة أترابه ، فقد ظل لليال كثيرة وهو يقصّ عليهم ما رآه في الصوب الكبير ، من مشاهدات وعجائب شارع الرشيد ، حديقة غازي ، بارك السعدون . بعد أنْ طاف بأرجائها ووقف على سرّ ذلك الكوكب المجهول .

* *

المسرات

- ١ -

صنع جيلنا حياة بهيجة تتدفق مسراتها في كل الأوقات. وفي مديات الأمكنة :
مرح الصحبة في رأس المدوّر ، السباحة في شواطئ خضر إلياس وشريعة النواب ، مغامرة الإنشغال بقصص الليل الغامضة ، محاولة الخروج على (نصّ) الخوف والوصول إلى خرائب الجعيفر .
بهذا الإقدام الطفولي عاش الصبية أحراراً في قلب الحياة باختيارهم المحض ، وإرادتهم الطليقة .. وهكذا فليس ثمة من زمن بعينه أو ميقات معلوم خارج تقويم الطفولة ، فاللعب ، أو غبطة الانشغال بالحركة يمتد كما الأفراح الكبيرة طوال النهار وأماد من الليل صيفاً وشتاءً وفي كل الفصول فلا نأوي إلى منازلنا إلا لنأكل أو ننام ، ثم نواصل أحلامنا بالغد الآتي ، الطرقات مفتوحة أمام خطانا .. واللعب يتيّسر في كل حين ، فلا نمل ولا نشعر بأي نوع من الأوصاب أو التعب. قد لا نهجع في القيلولة ، وتفوتنا بعض وجبات الطعام ، ونحن نمتلئ بنشاط حركي مدهش ، ننتقل بحيوية وتوْق من الدربونة إلى (الشط) ومن (السباحة) إلى (الكسار) ، وكأن العالم خلق من أجل أن نمرح فيه، ولا شئ في هذا الكون المحدود إلاّ (الحرية) ، الاختيارات متاحة في كل وقت ، . هكذا الصبية في الاربعينيات قادرون على تحقيق الذات وإشباع هواياتهم إلى أبعد مدى .

٢

تمرد على الرتابة .
فالحركة الحرة تمنح الكائن فرصة التعبير عن نفسه وسط العالم .
وقد كشف الصبية أفقاً آخر للكون ، فأيقظوا الوقت ، لتشتعل الإمكنة بالصراخ والضحك تولدّ البهجة ، ونشاطاً حركياً ، وقفزاً والإتيان بحركات وإيماءات أقرب إلى الجنون ، نمرح ، نلهو نتسلق الجدران ، نعدو وراء الأباعر ، ننزل الشط ، نصطرع كالديكة :
ونحن ننشد :
سمبيلة السمبيلة
على النبي صلينه
صلينه ما بتينه
بتينه الحلواني ،
حلواني جكجكاني ،
جكجكاني البقرة .

- ٣ -

يرفرف القلب إثر طائرة الورق الملونة ، سابحة في الفضاءات الوسيعة ، يتنافس الصبية فيما بينهم ، أيّ من الطائرات تحلق أعلى وتقطع المسافات الطويلة من سواها .. وحين تعلو كلها في الفضاءات المفتوحة. يحين الوقت لخوض معركة التقاطع (الكّصّاص) .

.. ويُستخدم فى هذه المعركة كل صنوف الحيّل ، نحو : " الرصد ، المناورة ، التضليل ، المباغتة ، ثم الانقضاض " .

" وحين تقترب الطائرات من بعضها يجري كل صبيّ منا ، حساب (زاوية التقاطع) والبحث عن النقطة الواهنة لدى طائرة الخصم .. تتوالى الجولات والصولات وتتحول الفضاءات الفسيحة إلى ميدان منازلة فترتفع عقيرتنا بالصراخ مرة وبالصفير مرة أخرى .

.. ثمة من يعمد عند إشتداد المنازلة إلى الفرار ، بأن يلجم طائرته فيرتد حسيراً إلى المسافات الخفيضة لينجو من الفخ المنصوب .فيما كان عبد الله زيدان قد عزم كعادته أن يخوض المعركة حتى النهاية ، فهو شديد الثقة بنفسه ماهراً في مناوراته، ويعرف كيف يوقع الطائرات المغيرة ويصطادها واحدة تلو الأخرى .

فيلجأ إلى تضليل الآخرين فيوهمهم بالانسحاب بعيداً عن دائرة الاشتباك وكأن الأمر لا يعنيه ، وعندما يطمئن الآخرون بأن الأجواء باتت آمنة ، وبأن الفضاء مفتوح أمامهم .. فيما يعد عبد الله عدته مترقباً ، راصداً . فينقض على الطائرات كالسهم النافذ ، وبسرعة مذهلة يسدد أهدافه فيجعلها تهوي متداعية .

.. طيارات الورق الملونة التي كانت تسمى (أسطة بدر) حملت جيلنا كله من حوض الدربونة وارتقت به إلى السموات العالية ، ونحن نمضي إثر النجوم في العروج إلى الحرية . حين تتحول الطائرة إلى ما يشبه طير الحرّ وهي تشق الأجواء . سابحة في الأفق اللامتناهي ..

- ٤ -

إبتكر الصبية لعبة شاعت بعد حين في الفحامة ، فقد حول يحي عبد الجبار حوض مصباح سيارة اللوري إلى عربة تتسع لمن هو في مثل أعمارنا إذا لملم نفسه وجلس القرفصاء داخلها ، وعند الدفع تنساب على الأرض بيّسر ونعومة .

إلا إن التجارب اللاحقة أفضت إلى إهمال هذه اللعبة لضيق حجمها ، ولصعوبة ضبط الموازنة عقب إنقلابها المتكرر .

لم يتوقف يحي ذي العقل العملي اليقظ ، عن إجراء بعض التجارب والمحاولات للوصول إلى لعب جديدة ، من شأنها إضفاء لون جديد على حياتنا، فابتدع هذا الميكانيكي الصغير لعبة (الطرزينة) عبارة عن سعفة نخيل (مقوسة) تم جردها من (الخوص) ، وثبت على ظهرها

عشرات من أغطية المشروبات الغازية (السيفون) ، لتحدث عند الدفع إهتزازات شبه منتظمة بتأثير طرفها الدقيق المتصل بالأرض .. وكلما زاد معدل السرعة تضاعفت الاهتزازات لتصدر أزيزاً متوالياً . شبيهاً بـــ (الماكنة) بفعل أغطية السيفون ، عند إحتكاك طرف السعفة بالأرض .

- ٥ -

أصبنا لفترة طويلة من صبانا بولع الإقبال على لعبة المياه الغازية (الناملبت ، والسيفون) .
.. لم تزد يوميتي (مصروفي اليومي) في ذلك الوقت عن عانة واحدة ، (أربعة فلوس) ، كانت تؤمن لصبيّ مثلي طائرة ملونة ماركة (أسطة بدر) ، أو احتساء قنينة (سيفون) بفلسين فقط ، وبالفلسين الآخرين إبتياع (بيض اللقلق) أو حلوى (شباك الكاظم) .. فيما بقيت لعبة السيفون هي الأثيرة لدي واستحوذ الاهتمام بها على الصبية أيضاً ، ونحن نتبارى فيما بيننا ، أينا يتغلب على صاحبه من خلال (خضّ) الزجاجة خضاً متتالياً ليدع المياه الغازية تأخذ أقصى مداها بفعل قوة الغاز المندفعة ، فتنسكب المياه على الأرض في جريان متدفق ، حتى يتوقف ويستقر ، والغلبة في العادة لمن تجاوز الخط التي انتهي إليها الأول .

- ٦ -

بعد أن تنازلت عن طيرين من ثلاثة أهداها إليّ (وحيّد عبد الله الكاظم) . إحتفظت بالطير الثالث . وأطلقت عليه اسم (نسيم) ، وأصبح هوايتي المفضلة بعد أنْ أنس المكان ، فكان يتهادى مرحاً ، أو يثب بين الطرمة والحوش وحب الماء ، يفرد جناحيه ثم يطير وقد ينأى . ليعود مرة أخرى . بقي ملازماً لنا ، ولم أكن أفارقه ، يبيت معنا في الحجرة يصحبني إلى الفراش ، يقف برفق على يدي ورأس وكتفي وكأنه يداعبني .
كما كان فطناً وذكياً ، ينتظر أوبتي عائداً من (الملاّ) وما إن أضع قدمي في المجاز حتى يقبل عليَ ، فأمد إليه كفي .

-٧-

ما بين دار إبراهيم الجرمط وبيت زيدان تلعب الصبايا (طمة خريزة) وهناك في رأس المدور ، المازة ، غنية ، فكتوريا ، نهودة ، يتشاغلن بلعبة (الصقلة) .
.. فيما تلهو سنية ، ضوية ، مديحة ، جذلات وهن يتبارين ، في قفزات عجولة فوق مربعات (التوكي) .
.. على الجانب الآخر زهير ، صبري ، محمد الكسار، وأنا نتبادل أدوار الختيلة .. وإلى جوارنا فوضى يحدثها رشودي ، وهو يواصل صراخه في وجه رحيم ومزهر معانداً بأنه الفائز في (الجعاب) ، فقد إنتصب (الكعب) ووقف (اللّجْ) !

الشطّ :

-١-

الشط في ذاكرة الأطفال يعني زمناً أخاذاً ، أو عصر الدهشة ، .
عند ضفاف الشطّ في النواب ، والقمرية ، اكتشف الصبية معنى الفرح الأول .
تتدفق موجات متوهجة باللؤلؤ والمرجان ، والذهب الحرّ ، ما بين خيوط الشمس وصوت النهر الآتي من روجات الشطّ المجنون ، والسحب الناعمة فوق جسر الشهداء ..
تتوالى الألوان
الفيروز ،
الحنّاء ،
الرمل ،
النارنج ،
الليمون ،
وحبيبات الرمان ،
.. ويصوغ في مديات النهر والآفاق :
عطر الصحبة والألفه
الشمّام ،
الشمع ،
العشب،
الطين الجريّ ،
فيما يمكث في الأرض الحُلم الأول :
مسنّاة (*) القُمريه
بلّم الجوز البغدادي
أشجان (الناي) ،
هديل الفختي ،
رفرفة النورس ،
أشواق (الصيادين)

-٢-

النهر في فقه اطفال الكرخ يعني الفرض الأول ،
باب الحرية ،
بدء التكوين ،
سرّ الخلق ،
قانون الحركة :

رفرفة الطير ،
حفيف الأشجار ،
صوت الريح ،
خرير الماء ،
هدير الروجات ،
مطر الضوء
الطيف الشمسي .
عبور النهر

هكذا يفلسف عقل الطفولة ماهية الشط ، خليّة الوجود الأولى ، التي يصدر عنها كل شئ ، وتتحرك من حولها الكائنات .

فتنجذب إلى سحرها العقول والأفئدة ، ببهاء وجلال ، فنعدو وراء ظلالنا جذلين، .

نستلقي ما بين همسات (الجرف) الناعمة ، وصخب (الروجات) الهادرة ، و..ثم نأوى إلى نعيم (الكيش الحلاوي) . نقضم خدّ التفاحة ، أو (نكردش) – شيف – (الرقي) .

-٣-

صنع صبيّة زنكوْ ،
من صلصال (حبيب العجمي) ، أنصاباً وتماثيل ..
وقلاعاً ، وقصورا ..
وكواعب أترابا
وعروساً نافرة النهدين ، واسعة العينينْ .
وبساتين تغمرها رائحة الليلْ
تمرح فيها خيل (الفحامة)
.. وشق الصبية في (الجرف) أنهاراً تجري
لبناً ، عسلاً ، خمرا ..

-٤-

هي ذي الحرية ، جوهر الطبيعة والطفولة معاً ، توقظ في النفس جماليات الكون الباذخة التي تمتد من القلب إلى الأفق القصيّ .. حتى آخرة الأزمنة . فيما تمور الشواطئ بالمرح الفطري المتأجج بالضوء والصخب ، والغبطة .

-٥-

الشطّ لدى الصبيّ متعة أثيرة وفرض واجب ، لم يتخلّ عن ميقاته المعلوم عقب الخروج من دوام (الملاّ) ، فيقبض ذيل دشداشته بأسنانه ، ويعدو مهرولاً ، يرتقي (الدهدوانة) ، لينزل النهر .. يستبق الوقت ، قبل صلاة المغرب ، .. فيلقي نفسه في المياه الدافئة رفقة أترابه في (زنكو) .. ولا يؤوب إلى الدربونة إلا بعد انصهار الشمس في مياه خضر إلياس .

تجربة الملاّ (*)

– ١ –

بين الخامسة والسادسة أنشد الصبيُ الأبجدية بإيقاع مقارب للحداء . وتعلم مهارات الاتصال الأولية (الحروف والأرقام) ؛

- فأنشأ بعض الكلمات القصار .
- ورسم صورة الخط المستقيم .

وأظهر الاحترام للـــ (خلفة) والتبجيل للملاّ .

* *

الملاّ :

صوت الضوء ،

بادئة النور

فعل الكلمة

تكوين الروح

حرف الأفق الأعلى

ومقام النصّ الأقدس

* *

الانتقال من التلقين والتعيّن ، من الطريقة الإملائية المباشرة التي تقوم على مبدأ (أرى) ، (أسمع) بوصفهما مدركات حسية إلى خطوة منهجية تالية ، محاولة لتعقل مفاهيم ما وراء النبأ يتجاوز تفسيرها : المتعيّن ، الملاحظة ، التجربة ، ، الظاهرة المباشرة .

* *

جزء عمّ ، لوحة معرفية لما فوق الدربونة ، وعبث الأزقة ، والانشغالات الصغيرة ، أطل الصبيّ على الجزء الغائب من (الحكمة المتعالية) .

باستظهار (عمّ) والأجزاء اللاحقة والإصغاء اليومي لمواعظ (الملاّ) ، بدا الكون لأول مرة كما لو كان سطحاً مستوياً مؤلفاً من خطين متنافرين ، كل واحد منهما يسير بأتجاه نقيض للآخر .

الجنة – النار

المؤمن – الكافر

الوعد – الوعيد

الخير – الشر

قال الملاّ حماد :

"لابد أن نتمسك بالخير للفوز بالجنة والفردوس الأعلى ، ونعزف عن الشر بالأدعية والصلوات " .

* *

نطق الشيوخ (حماد ، حميد ، عباس) بلسان واحد :

- الحق هو الحقيقة الأولى .
- الدين المعاملة .
- الإيثار جوهرة الإيمان .
- لا تؤذ أحداً .
- المحبة من نصيب النفوس الكبيرة .

* *

إزاء قيود وصرامة النظام التي كرسّها الملاّ حماد في متابعة الحفظ ومراقبة السلوك والدوام لعموم الدارسين ، فإن تجربة الصبيّ لدى (ملاّ حميد) تكاد تكون أخفّ وطأة وحرة نسبياً ، رغم وجود الخصائص التربوية المشتركة التي عني بها الشيخان ، فكلاهما أولى إهتماماً خاصاً للنواحي الروحية والاجتماعية، وسعيّا دائماً إلى إيقاظ الحسّ الداخلي ، والحث على اللياقة الأخلاقية ، الطاعة ، الصدق .

ولم يهمل أيّ منهما وصايا نظافة الأبدان ، والالتزام بمواقيت الصلاة . أما الشيخ عباس العزاوى فقد إختص بتدريس أصول القراءة وقواعد (التجويد) .

* *

ما إن نلج باب الملاّ .

حتى يأخذنا الحالُ وَجْداً وحنينا ،

إذْ يورق في جنبات الروح ..

صوت جلال الدين الآتي بالشجنِ الأبهى فيصير مجاز المسجد دنيا أخرى ..

أو كوْناً ممدوداً للاّ أين عبقا

فتذوب المرئيات بددا

يأخذنا الحال صوب مقام القُرْبْ "

والفجر" ، وليالٍ عشر ..

تملؤني حباً ، وسلاما .

* *

إقتادني أبي ذات صباح إلى (ملاّ) حماد في أواسط الاربعينيات ، بعد أن أقنعته أمي بأن إنضمامي إلى الملاّ وتعلم القرآن وحفظه أجدى من إضاعة الوقت في الطرقات ، وأعظم أجراً

وثواباً من المدرسة. لأن (الصبي) إذا تعلم فأن سيؤنس وحشة قبورنا بتلاوته الذكر الحكيم على أرواحنا .

وهكذا ، فبدلاً من أن أصعد (الدهدوانة) إلى مدرسة الزوراء مع أترابي ولجت باب الملاّ لأمضي في رحابها ثلاث سنوات قاربت فيها حفظ واستظهار النص القرآني إلا قليلا ..

وتعلمت فيها مبادئ القراءة والكتابة . وتعد السنوات التي أمضيتها بين مسجد (كتخذا) وجامع (الحشاشة)(*) وزاوية الشيخ عباس العزاوى، من بين أيام العمر الأكثر قرباً وإشراقاً في نفسي ، ولعلها كانت المقدمة التأسيسية للتعلم والميل إلى الدرس ، والتحصيل العلمي ، مثلما أورثتني الولع بالكتب والأوراق والأقلام .

.. عندما صحبت أبي في ذلك الصباح ، إجتزنا الفحامة ، ونفذنا عبر (الحصانة) إلى (قهاوي عكيل) ومنها إتجهنا إلى (سوق حمادة) ، إستدرنا جهة الشمال ، فانحدرنا في الزقاق المنسرح .. على بعد خطوات من مسجد (إسماعيل كيتخذا) إلتفت أبي قائلاً : هانحن وصلنا ، هيا ندخل .

قطعنا رواقاً طويلاً يتصل بباحة فسيحة ، وعلى اليسار – طارمة – وسيعة ذات سقوف عالية تتصدرها منصة ، يطل من ورائها شيخ مهيب ، عندما رأى أبي مقبلاً عليه ، نهض الملاّ من مكانه ، محيّيا – تحدثا باقتضاب حول الدوام والنظام، وقبل أن يهم بمغادرة المكان دسّ أبي في يدي (عانة) وهو يوصّيني بطاعة الملاّ ، ثم مضى ..

كان اليوم الأول مضجراً وطويلاً ..

* *

أسابق شمس الصباح ، أتابط عليجة وزوادة فيها رغيف خبز بحجم كف اليد ، وحفنة من التمر الجاف .. سعيداً .. مرحاً تطوى خطواتي الأرض ، كما لو كنت ذاهباً لرحلة استجمام ، أشق طريقي نحو الملاّ عبر الحصانة ، يفزعني بيت (الدشغلي) حيث توابيت الخشب مرصوفة على حائط الدار تنتظر الموتى ، في البداية كنت أغضّ النظر عنها ، وأحاول تجاهلها تماماً ، ولكن المرور بها في الرواح والمجئ ، لأربع مرات في اليوم جعلني أعتاد عليها ، ..

وقد نتوقف عند (جمبر) حمزة الأحمر لشراء بعض الحلوى الرخيصة .. ثم نواصل الطريق صبحي ويحي وأنا، فنجتاز كهاوي عكيل ، ومقهى ياسين، ومقهى إرحيم ، بعدها ننفذ إلى الزقاق المفضي إلى الملاّ .

أتخذ مكاني بين أقراني متربعاً على بارية القصب تصطخب بعد حين جنبات الطرمة بـــ (الهمهمة) و(الثرثرة) و(الاستذكار) يحركون جذوعهم ورؤسهم يميناً وشمالاً بإيقاع واحد ، يستظهرون السور والآيات بطريقة شبه آلية .

فجأة يتبدد ضجيج الأصوات تصير همساً خفياً وتتوقف الحركة .. ثمة يسود صمت مطبق كأن الطير يقف فوق رؤوس الصبية لقد حضر الملاّ !

يمسك بيده عصا وأي عصا ، لا تأخذه رأفة بمشاغب ولا يرق قلبه لكسول ذو عزم شديد وانضباط حازم يتابع بعينيه الضيقتين كل صغيرة وكبيرة ، شاردة أم واردة ، لا يتهاون مع مقصر ولا يتردد في إنزال عقاب ، فصلابة شخصيته وجديته المتناهية في الضبط والربط ، كل ذلك جعله مهاباً في عيون الدارسين ، فلا يجرؤ أحد في حضوره ، أو أثناء وجوده على القيام بأدنى مخالفة ، والويل كل الويل لمن يتسبب في إغضابه وإلا فعقابه مرّ وغليظ .

وقد نال الصبي ما ناله جراء تهاونه في استذكار سورة واستظهار أخرى ، فحرمني في المرة الأولى من (صرفة) الظهيرة ، وفرض علي (الحجز) في حجرة (الأجزاء القديمة) .

وإذا رق قلبه في الواقعة الأولى ، وخصني بشيء من طعامه الذي يأتيه من بيته ، فإن سورة غضبه في المرة الثانية انتهت بي إلى عقاب مغلظ بـــ (الفلقة) . وما أدراك ما عذاب الفلقة كأنها لسعات نار موقدة . عندما اقتادني الخلفة (ماجد) إلى الملأ حماد بسبب إهمالي في استظهار إحدى سوّر جزء و(الذاريات) .

.. امتعض الملأ فور سماعه قول الخلفة ، فصاح غاضباً : الفلقة .

لم أنبس ، لزمت الصمت ، وأنا أتلقى الأمر صاغراً . فقد أمضيت الأيام الماضية لاهياً في اللعب والسباحة ، دون أي اهتمام للواجب المطلوب .

.. بل وحاولت التمرد على الخلفة نفسه ، لأفلت من قيود التحضير اليومي .

أُحْضِرتْ الفلقة على عجل وانتظمت صفوف الصبية والأولاد لمتابعة مشهد العقاب العظيم .

رفعت الأقلام وجفت الصحف ، وجاء ميقات الحساب .

تدافع الزبانية الحرفيون ممن امتهنوا تنفيذ العقوبة والذين اختيروا بعناية فائقة لمثل هذه الساعة ، أفردت حبال الفلقة وأدخلت قدمي فيها ، وأنا مستلقٍ على قفاي .

أوصالي مضطربة ، والوجع بدأ قبل بدء الضرب ، شعرت أن مرارة شديدة تملأ فمي ، بعد أن جفَّ لساني .

نزل الملأ من المنصة يحمل عصاه الخيزران ، شاعت بين الدارسين باسم (الحجية) .

ربطت قدمي من الرسغين ربطاً محكماً بحبال الفلقة وبدت كما لو أنها حزمة متماسكة .

رفعت قدماي إلى الأعلى، الواقفون عيون مرتقبة بين الإشفاق ومتعة الفرجة .

هوّتْ خيزرانة الملا كما النار تلسع باطن القدمين ، أعقبها وجع ممض ، ثم خدر بعد الضربات الخمس الأولى ، ولم أعد أشعر بشيء ، وكأن قدمي انفصلتا عن جسدي .

عند هذا الحد كفت يدّ الملا عن الضرب ، ثم ارتقى المنصة ، ووجه كلامه إلى الزبانية : إرفعوه عن الأرض، وألقوا به على البارية .

أحسست بوخز نظرات الرفقة والأتراب ، وهي أشد إيلاماً على النفس من أوجاع الفلقة لم أعد أطق البقاء فقد تآكلت خجلاً .
تحاملت على نفسي ، وغافلت (الملا) والخلفة ، تسللت خارجاً ، وكأني أحاول الفرار من نفسي اللّوامة .
عدت إلى الدار مهموماً ، خائباً .
رويت لأمي ما نالني من عذاب الفلقة .
كادت أن تبكي وهي تحتضن قدمي المتورمتين .. وهي تعيد حديثها الأثير :
" .. من غيرك يا ولدي سيقرأ القرآن على أرواحنا وعند قبورنا عندما يحين الأجل ويطوى الكتاب ؟!
أبوك وأنا ندخرك للأيام القادمة ، فلتكن صالحاً ، باراً بنا .. فإذا لم تعد إلى الملا وتتم ختمة القرآن ، فإنك تتخلى عنا ، وتخرج عن طوعنا .
".. قم الآن ، واغسل وجهك ، وسأصحبك للملا غداً ، وسألتمس أن يعفو عنك .." ولا تنسّ بأن (عصا) الملا هي من شجر الجنة !!.
.. أحّيا صوت أمي الحزين عافيتي النفسية ، فقد نفذ حديثها إلى قلبي ، وأعاد السلام إليه .
مثلت في اليوم التالي بين يدي ملا حماد ، وبدا هذه المرة حانياً عطوفاً ومعاتباً .. مستثيراً حميتي على تجديد العزم ، التفوق في حفظ واستظهار السور لأظفر بـــ (الختمة) .
وآمنت بعين اليقين بأن العقاب الذي أنزل بي ، كان عادلاً ، جزاءً وفاقاً لتقصيري المتعمد ، يتعينّ عليَّ أن أتقبله وتحمل نتائجه راضياً . وفي كل الأحوال فإن ما حدث لم يمس أو يشوّه الصورة الوضاءة للشيخ الجليل ، فبقدر ما كان حازماً وصارماً في السلوك والدروس ، فإنه بدا مشرقاً بهيّ الوجه عندما صفح عني ، وكان سبباً كافياً لأن يشعر الصبي بأبوته الحانية ، منذ تلك اللحظة التي رّق فيها قلبه وأطعمني من زاده ، في وقت كان يفترض فيه أن أحرم من وجبة الغذاء جراء إهمالي والآن وبعد انقضاء كل هذه السنوات ، بما يقارب ستة عقود من الزمن ، اعترف وإلى أخر يوم في حياتي بفضل ملا حماد الراوي والامتنان لأستاذيته القديرة والذي ظل لأمد طويل المعلم الأول في الكرخ ، تخرجت على يديه عشرات الأجيال .
من الصعب مكافأة مآثره التربوية والتعليمية ، فقد منحني وغيري من الدراسين الكثير من الرعاية والاهتمام ، فكان يحرص على امتحان كل واحد منا للتحقق من حفظ واستيعاب النص القرآني جزءاً إثر جزء .
وخصص صرفة العصر الثانية لتعليم جموع الدارسين الخط والكتابة ، وباشر بنفسه متابعة هذه العملية من الألف إلى الياء ، وقد ظفرت ومئات من الدارسين على يديه بهذا النوع من

المعرفة ، وزاد على هذا البرنامج ، بحصة (الحساب) ورسم الأرقام وانتهى بنا إلى العمليات الأربع .

.. وعلمنا بنفسه الخط العربي بمستوياته المتداولة ، وكان شديد الاهتمام بنظافة الدفاتر وحسن الخط ، وكتابة الواجبات البيتية وكان حريصاً أن يتولى شخصياً التدقيق والفحص والتصحيح .

ولكم تمنيت أن استظهر القرآن بكل أجزائه ، وسعيت إلى (الختمة) التي كانت تعني بلغة عصرنا الحالي (شهادة تخرج) التي يرتقي من يظفر بها إلى درجة معرفية جديدة ، قد تؤهله لينال لقب (خلفة) المساعد الأيمن للملا .

أذكر أن صبياً من زملائنا من محلة (الفلاحات) اسمه عبد الله ، أتم حفظ القرآن ، فأقيمت له مراسيم (الختمة) ، وكانت احتفالية كبيرة ، كما لو كانت حفلة زفاف .

وفي العادة يجري الإعداد لمثل هذه المناسبة بوقت مبكر ، بين الملا وأهل الصبي المحتفى به .

وغالباً ما يكون موعدها يوم الخميس ، فيأتي الصبي مرتدياً دشداشة جديدة بيضاء اللون يضع على رأسه (غترة) و(عقالاً) مقصباً بعضود ذهبية .

يباشر الموكب حركته من باب (مسجد كيتخدا) ببطأ وتؤدة بمصاحبة (الدمام) ونغمات (المزيقة) ، يحف الدارسون بالمحتفى به ، ويتقدم الصفوف إلى جواره الملا وأولو أمر الصبي (الوالد وعدد من أفراد عائلته) . يملؤهم الزهو والفخر .

وعلى امتداد الطريق يبادر البعض من الناس يقدمون التهاني والتبريكات ويحيطون الصبي بعبارات الثناء .

ويردّد الموكب طبقاً لنغمات الطبول والمزامير نشيد الختمة :

الحمد لله الذي تحمدا

حمداً كثيراً تحمدا

كلم موسى واصطفى محمداً

وأنزل القرآن نوراً وهدى

تمر البهجة بالدروب ، وتشق زحمة أسواق (علاوى الحلة) و(الشيخ صندل) و(العجيمي) .. وتزغرد الأمهات ، وتجلجل (الهلاهل) في الأنحاء ، فيما يتواصل الإنشاد .

يتوالى (طش) الملبس ، ونثر (الشكرات) فوق رأس الصبي الذي يبدو سعيداً كما لو كان (عريساً) .

عندما استعيد الآن ذكرى (الملا) في مسجد إسماعيل كيتخدا القريب من سوق حمادة ، تمرّ بذاكرتي العديد من الصور والأصداء .

حجرة جانبية لصق الطارمة خصصت لحفظ الأجزاء القديمة والمتهرئة تعبق أجواؤها برائحة المسك والزعفران تنبعث من أكوام من المصاحف الصفر التي أصابها البلى .
ثمة بئر عميقة لا قرار لغورها تحت السدرة الباسقة .
قال الفتية القدامى : استخدمت البئر في الزمن البعيد لإخافة الكسالى والمتمردين ، من قبل أحد خلفاء الملا الذي كان يتهدد الدارسين في غيبة الملا حماد ، وقد تمادى في قساوته إلى الحد الذي جعل عدداً من الدارسين يلوذون بالفرار ، ولم يعودوا ثانية .
الفلقة التي أصابني شيء من عذابها ، لم يك الصبية الآخرون في منجاة منها ، فلم يسلم من إيلامها أحد منهم إلا نادراً ، فقد مدت الغالبية منهم الأرجل واحكم وثاق الأقدام ، فاصطليت ناراً بتلك العصا الخيزران (الحجية) الناعمة الملساء ، كما لو كانت حية تتواصل لسعاتها بيد الملا فتشوي باطن القدمين ، لا يوقفها صراخ ولا يخفف آلامها اللاهبة بكاء أو توسلات .
وعند الانتهاء من احتفالية العقاب ، يتدحرج المعاقبون ، على بطونهم ، لا يقوى أحد منهم على الوقوف ، فيشق عليهم المشيِّ إلا بعد حين .
يبقى مسجد كيتخدا في ذاكرة الروح رمزاً ندياً مفعماً بالوداعة والسلام .
فثمة أسراب كثيرة من الحمام ، تنزل باحة المسجد (المرصوفة بالطابوق الفرشي الأصفر ويحط جوار البئر وعند حباب الماء ، يثب ما بين الحرم والسدرّة والشرفات يبعث هديله الشجيّ كل تلك التألقات والأنوار المبثوثة في كل زاوية وعند كل جدار ..
جماليات الروح الحانية وخلود المكان .

– ٢ –

الملا حميد عبد اللطيف محمد الراوي (١٨٦٨ – ١٩٥٦) أستاذي وشيخي ، تلقيت على يديه دراستي . في مرحلة لاحقة ، فأعادني إلى (جزء عمّ) بعد أن قاربت الانتهاء من الجزء الخامس والعشرين ، ولم يبق أمامي إلا خمسة أجزاء لختم القرآن .
ولا أعلم حتى الآن الأسباب التي دعتني أذعن لقراره العجيب ، لكن الذي أذكره إنني بدأت الرحلة في (جامع عطا الصغير) من بداياتها الأولى .
الملا حميد ، ليّن ، متواضع ، مستبشر ، هادئ الطبع ، خفيض الصوت ، عذب العبارة ، تحسبه أباً ودوداً طيباً . تحت ظله وبإشرافه ، تعلمت ، واستظهرت الكتاب المبين .
شأنه كما الملا حماد يتابع الدارسين ، ويسدي النصح بصفة مستمرة ، ويؤكد في مواعظه ووصاياه :
"ألا ننزل النهر ، خشية أن تبتلعنا المياه العميقة أو تجذبنا (السويرة) إلى قاع الشط فنموت" !
وعند انقضاء الدوام اليومي يعيد موعظة الشط ، ويتوعد المخالفين عقاباً شديداً .

ولربط القول بالفعل ، فإنه لجأ إلى اتباع اسلوب عملي لضمان الالتزام بتحذيراته ، فعمد إلى وضع علامة زرقاء اللون على (فخذ) الأولاد ، وهي على شكل (ختم) بيضوي صغير .

ويتم هذا الإجراء في العادة قبيل (صرفة) يوم الخميس .

ويعاد فحص الدارسين صباح يوم السبت للتحقق من وجود (الختم) .

.. وبخلاف ذلك يعرض الصبي نفسه للمساءلة والعقاب .

فإذا اضمحل اللون أو اختفى تماماً فإن ذلك يعد سبباً كافياً لإجراء التحقيق ، وإذا لم يستطع الدارس ، تعليل زوال الختم بدليل ما ، أو تبريره بالاغتسال المنزلي مثلاً – فإن العقاب آت لا مناص منه .

وكان البعض منا ، وأنا من بينهم ، نتحايل على (تحوطات) الملا ، بأن نضع شريطاً ورقياً لاصقاً على موضع الختم قبل أن ننزل الشط ، وعندما ننتهي من السباحة نرفع الشريط عن موضعه ، فيبقى الختم سليماً على حاله .

ينتصب الشيخ على بسطة شبيهة بالأريكة وأمامه منضدة صغيرة ، يجلس الدارسون قبالته تباعاً ، للتعليم أو الاختبار ، ويبدأ فحص استيعاب الدرس السابق .

.. ثم يتلو علينا سورة جديدة ، بمثابة واجب منزلي ، مطلوب حفظها في اليوم التالي .

.. الصبي يمسك (التباعة) بأطراف أصابعه يمررها فوق الكلمات ، نتابع النص ونردده من بعده .

.. وإذا أخطأ أحدنا مرة ، يتوقف الملا فينظر معاتباً ، فيعيد التلاوة ، ويكررها مرتين ، فإن عاد الصبي وأخطأ مرة أخرى . فعليه أن يتلقى جزاءه فيمسك (أذنه) ويشدها .

.. وإذا تداول الخطأ ، فإنه يحرك عصاه وينزل بها على ظهورنا ولكن من غير مبالغة أو إسراف .

.. والمدهش والرائع في هذا الرجل الجليل، أنه كان يبادر إلى مكافأة النابه الذي يحسن القراءة من التلاوة الأولى فيلقي إليه (حبة من حامض حلو) .

الدارسون جاءوا من نواحي الفحامة وأطرافها ، نتلقى الدرس في مسجده المعروف آنذاك بـــ (جامع عطا الصغير) تمييزاً للجامع الأصيل ، وكان الملا حميد يقيم في (دربونة الخطاطبة) المجاورة للملا..

أما موقع الجامع فإنه كان يطل على سوق علاوى الحنطة ، قبالة الدهوانة ، ولا يبعد عن بيتنا إلا مسافة قد لا تزيد عن مائتي متر .

وأتى زمن (الكص) البغيض ، فأزال جامع الملا حميد ، اقتلعه من جذوره ليحلّ مكانه شارع حيفا (الجديد) ، مثلما أزاح من طريقه مسجد إسماعيل كيتخدا ، فأخذ معه طفولتنا ، وأيامنا ، ودربونة (زنكو) ..

هكذا غاب مسجد ملا حميد وأصبح محض ذكرى ، شأنه شأن المرابع الأخرى ،
لا يزال مشهد أيام القرآن الأولى عالقاً في قلبي ، مثلما ظل الشيخ الوقور يطل من وراء الموت ، وجهاً وضيئاً ، فرحاً مستبشراً .

* *

عند إنتهائه من (الختمة) الأخيرة ، طوى الملا حميد المصحف قبلّه ثلاثاً ، ونادى ابنته أن تسقيه ماءً .. فشرب وارتوى جالت عيناه في المكان برهة ، ثم استلقى على حصيرة الصلاة وهو ينظر في عيني ابنته .

"غطني .. "خلصت" ؟!

فألقت عليه الدثار .

التفت إليها مودعاً ..

وهو يتمتم بالشهادة ..

كررها ثلاثاً ..

وبعدها انطفأ الصوت .

– ٣ –

القبسات الروحية في صحبة التنزيل المبين ، كانت هذه المرة على يدّ الشيخ عباس حميد خضير الغراوي ، الذي علمني أصول التلاوة الصحيحة وقواعد التجويد .
لم يزّد عدد الدارسين عن أربعة ، وهم : عبد الحليم (أبي الشيخ) وعبد الواحد عبد الله الكاظم وأنا أما الرابع فلم أعد أتذكر إسمه، وقد أفرد الشيخ الوقور فسحة صغيرة في آخرة دكانه المكتظ بـــ (فردات) التبغ والتنباك.
وقد أمضيت في البداية أياماً صعبة ، وعانيت رشحاً مستديماً جراء رائحة التبغ وشدة الحرارة أيام القيظ .
عند هدأة السوق وانفضاض الزبائن ، يجد الشيخ أمامه فرصة سانحة ، ليدرسنا الترتيل والتجويد ، ويشرح بإسهاب الرسم والهجاء ، وطرق الضبط وعلامات الوقف ، وهو في التعليم أستاذ دقيق متأن وصبور ، يعيد الدرس الواحد مرات عديدة ، ويلجأ إلى الشرح المستفيض . ولا ينتقل إلى الدرس التالي إلا بعد أن يتحقق من فهمنا واستيعابنا لما قبله .
ولا يجد غضاضة في الإعادة ، فالتكرار يفيد التأكيد حسب قوله .
والقاعدة التربوية والتعليمية الأساسية لديه هي أن تكون أميناً مع نفسك ، وصادقاً مع الآخرين ، وليس ثمة من سبب يدعو الانسان إلى الخجل والحياء في العلم والتعلم ، فإن سئلت عن شيء فأجب بالحق . فإذا قرأت آية ووجدت صعوبة في ضبط تلاوتها ، فعليك أن تسأل وتسأل ، وتسأل ، فالعيب كل العيب أن تدعي الفهم وأنت خلاف ذلك .

والشيخ عباس الذي يقيم وسط الفحامة كان صديقاً حميماً لأبي ، وظلت الصلة بينهما إلى آخرة أيام الشيخ وحتى وفاته .

عرفته الفحامة رجلاً ورعاً وتقياً ، وأحبه الناس لحسن معاملته وأخلاقه .

كأنه لم يزل قائماً في دكانه العتيد جوار أطلال مقهى عريبي التي أصابها التآكل فأصبحت خاوية .

كان الشيخ عباس وسيماً ، جميلاً ، بشرة سمراء بلون القهوة دافئة ومحببة ، وعينين كحيلتين واسعتين وقامة ممدودة كما الرمح راسخاً بثبات .

وظل محافظاً على هندامه الأنيق وهو يضع على رأسه غترة بيضاء تحيط بها لفة صفراء ..

أمضى سنواته الأخيرة إماماً لجامع (الأزبك) بباب المعظم ، بعد أن هجر دكانه العتيد ، بسبب توقف سوق العمل في الفحامة .

وكان الجامع آخر محطات حياته في الدنيا التي ودعها في خريف عام ١٩٩٤ .

- ٤ -

تُرى هل بمقدور الكلمات عقب مرور نصف قرن من الزمان ، أن تعطي أساتذتنا الأجلاء ذوي النفوس الكريمة والهمم العالية حقهم من التبجيل

المعظم ؟! وأن تردّ لهم ولو جزءاً يسيراً من الوفاء لذكراهم العزيزة ؟!

هؤلاء الأساتذة روّاد التنوير الحقيقي الذين جاهدوا لفضّ مغاليق العقل ، وتبديد الظلمات ، وهم يواصلون بكل إيثار ومحبة وتفان الدور الريادي الجليل على طول جبهة المكان والزمان ، وهم يحضون أبناء الكرخ من الأجيال المتعاقبة في أربعينيات القرن العشرين ما قبلها وما تلاها ، على العلم والتعلم ، لاقتلاع الجهل والأمية ، والظلمات ،

فأعدوا للوطن آلافاً مؤلفة للانضمام إلى المدارس بعد أن زودوهم بخبرة المعرفة الأولية .

سلاماً عذباً لتلك الأرواح النبيلة وتحية وفاء وامتنان لذكراهم العزيزة الذي نشروا الأنوار في الأفئدة والعقول. وأضاءوا دنيا الكرخ بالكلمة المبدعة الطيبة : "إقرأ" .

فمنحوا الأجيال رحيق خبرتهم ، وعصارة أعمارهم ، بل وكل حياتهم ، بعد أن علمونا وبسطوا أمامنا :

- آداب التلاوة .
- قواعد الإصغاء .
- لياقة السؤال .

إنهم الأساتذة المؤسسون ، والآباء المعلمون .

ألم يقل إمام المتقين علي بن أبي طالب في حق المعلم ، مقولته المشهورة المتواترة :

"من علمني حرفاً ، ملكني عبداً ،

فإن شاء باع ،

وإنْ شاء أبقى ،

وإنْ شاء أطلق ،

فإنه أبي في الدين" .

مرافئ الروح

- ١ -

أنّا تولّى وجهك شطر جهات الفحامة الأربع فثمة قباب ، ومآذن ، وأضرحة الأولياء ، وأئمة الصوفية ، هكذا وجد الصبيّ الكرخيّ عالمه وضيئاً بالرسوم والأسرار تنبث أنواره الروحية في المكان كله : شمالاً : حبيب العجمي ، العيدروسي ، الشيخ صندل ، وسلطان العاشقين (البسطامي) ، وشيخ الشط : خضر إلياس ؛ فيض المحبة ، حارس النهر والأطفال .

فيما تنتصب في الجنوب شواهد وأضرحة الشيخ معروف الكرخي ، والجنيد البغدادي ، التستري ، الخرّاز ، داود الطائي ، والسرّي السقطي . ومن الجهة الغربية يجئ الحلاّج وأحمد أبي رنّة التونسي .

وعلى ناصية الفحامة الشرقية زاوية أبي السعد ودار (الملاّ جواد):

عود الصندل ، رائحة الورد الجوري ، الشمع العسّلي كما لون الذهب الحرّ ، تغتسل الجدران بالحناء وقمر الدين ، ومرايا البلور تجتذب شعاع الشمس وضوء القلب .

صلوات قائمة في محراب الدربونة ، قرآن الفجر يتلى في (زنكو) ، ينبث شجياً .

يتعانق صوت الترتيل بهيّاً ..

- ٢ -

في الليل الثلجي العاصف ، تصطفق أبواب الدار بجنون ..

.. الريح الآتية بالبرد والأمطار .

تومض أفئدة الصبية بحكايات الليل ،

فنلوذ بجدتنا ،

نلتئم حول (منقلة النار) .

تبدأ فاطمة سرّد نصوص الروح ..

.. ترويها فصلاً فصلاً ..

فيحار العقل بين الأخيلة العائمة ..

.. وصيرورات الواقعْ

تروي جدتنا قائلة :

شيخ الشطّ يقظ كالطيرُ الحرّ لا يأتيه أبداً نوم أو يدركه وقت .

الحاضرُ في كل أزمنة الروح .

يحرس أطفالَ الكرخْ .

فيما يأتي الشيخ الكرخي

فيشق بالنور عتمات الليل

ويطوف بأحياء الكرخ داراً داراً ..

يمسح أحزان الفقراء

يوقد في شباك الأطفال قنديلاً من نور .

والشيخ حبيب العجميّ

من أهل الله وليّاً

يخرج في الليل العالي

يمشي فوق الماء

ويعود قبيل الفجر

فيدق بيديه الحانيتين باب الحريهْ

ويقيم الفرض الأول

بين أضرحة الشهداءْ .

أهل الله أوتاد الأرض

يردون دار الدنيا حين ينام القلب

يأتون الأيتام بالحلوى و(الشكرات) !

- ٣ -

عالم الأولياء أحد فصول كتاب جدتي تلك المرأة القديسة التي ملأت ذاكرة الصبي بقصص الغابرين الذين مضوا إلى المنازل البعيدة دون وداع ، فيما الحنين يلهب أفئدتهم بأحزان الرحيل والفراق ، وبأشواق الرفق والرحمة والحب النبيل .

هذه المرأة التي أضاءت قلوبنا ولياليناً بدفء سردها الساحر ، كانت تعتقد بيقين ثابت بأن (خضر إلياس) والشيخ الكرخي والأولياء المتناثرين في بغداد حاضرون في كل زمان ومكان يرقبون الدنيا ويتأملون أحوال الناس فيها ، وعند اشتداد الخطوب ، وتفاقم المحن ، يجيئون ، بخفون سراعاً كخفقة الضوء ، يطوّون الأرض ، حتى ظنّ الصبي أن الأولياء مبثوثون في حنايا الدار ، قائمون في (زنكو) ، يترقبون إيماءة الحضور ليأتوا بالمدد ..

وظلت فاطمة طوال حياتها وحتى رحيلها تؤمن :

"بأن نفس الوّلي لا تموت ، كالجوهر الخالد لا تجري عليه سنن العدم والفناء" .

المفارقات القوية الناتئة : حيال عالم المسافة والزمن: تفجر في عقل الصبيّ الأضداد : (الديمومة والصيرورة) ، فتصطدم الأخيلة بالوقائع ،

وتستمر حمىّ المنازلة بين التصورات والتصديقات . فيتلظى عقل الطفولة بنار الأسئلة إزاء نصوص فاطمة واعتقاداتها الجازمة .

يملأ قرع الدفوف قلوبنا غبطة وانتشاءً . تجذبنا الخفقات الآسرة ، فيهّم الصبية هرولة إلى دار (أبي السعد) .. عبقات المسك والعنبر تضوّع باحة (الحوش) المكتظ بالناس والضجيج والدراويش.

طقوس (متعالية) شبيهة بالأسرار همهمة كما الأنين في البدء ، إيقاع شجيّ وفي المنتهى يهيم المريدون (الدراويش) وجداً روحياً ، يتقلبون في أحوالهم توّقاً إلى ما وراء الحاضر ، وفوق الوجود .

ضروب من غرائب العادات وعجائب السلوك ،

تبتدئ خطواتها بحراب من حديد ،

تنغرس في البطون والرقاب والوجوه ،

تثير فزع الصبّية والأولاد ..

الذي سرعان ما يخف ويتلاشى ، بفعل الفضول البشري الذي يحاول أن يعلم ،

ليكتشف فيعرف !

وفي الخطوة التالية ، تتألق لحظة الوهج الوجداني عندما يتنامى الطقس الدرامي ويصل إلى ذروته في الانتشاء النفسي بمصاحبة حماسة المنشدين وعصف الدفوف ، فجأة تنسل السيوف من أغمادها ، وترفع في الفضاء الرماح الطويلة ..

جماليـــات

-١-

الجمال في ذاكرة الطفولة ، فضاء واسع من البهاء والجلال والغبطة لا يمكث بين قوسين باردين وقد يتعدى خطوط الطول والعرض ، ينفلت منها ، ويتجاوز مربع التفسيرات الأكاديمية الجافة ، بل ويتفوق أحياناً على ذائقة الحواس التقليدية الخمس ، وقد ينأى عن مدركاتها المباشرة .

إنه ببساطة جوهر الإنسان وذائقته النفسية عبر منظومة القيّم الجمالية التي لا حصر لها ، منها :

- براءة الطبيعة الأولى .
- تلقائية الفعل النبيل .
- شجاعة الروح وثبات القلب .
- الاستقامة العقلية ..

فتشكل جماليات متوالية نحو :

- الحنوّ ، المواساة ، الصدق ، المحبة ، الصداقة ، الحكمة ، الشجاعة ، المقاومة .

ويتبدى الجمال في الطبيعة ذاتها ، تكوين الوردة ، لغة الشمس ، هيبة النهر ، وبهاء المرأة .

.. ومن عذوبة الطبيعة ، إلى مقام الإنسان ، فالغد (الحلم) من مشاهد الجمال ، بوصفه قسمة مشتركة بين عموم البشر ، وأعلى مستويات الجمال هو الحرية ، في الإرادة الخالقة ، ووعيّ الاختيار .

.. والحرية في (زنكو) تعني جماليات الرضى ، السماحة ، المروءة ، العفو عند المقدرة ، التآزر ..

الاستعداد الدائم لإرادة الخير وهذه الجماليات هي أولاً كمال المرء ذاته ، وثانياً سعادة الآخرين .

وعبر منظومة الفضائل والسجايا الأخلاقية ، وفي المقدمة منها ، الإيثار يتحقق المثال الأعلى للجمال فيرتقي الإنسان ليصل إلى مقام الوحدة النفسية والإنسجام مع الذات ، والإحساس العميق بالآخر .

.. والجمالية في تقويم الدربونة تعني الاتساق والتناغم من خلال :

- الذات   - الموضوع
- الأنا   - الآخر
- الإنسان   - الكون
- الضوء   - البصر

- الشمس - الوردة
- العقل - الحرية

ليس توافقاً بالقوة ، بل هو : فعل تبادلي ، جدلية خالقة للخيرات ، عبر (النحن) التي تجعل من مشاق الحياة أخف وطأة على (زنكو) . تتجسد في العديد من المشاهد الحميمية :

- شاي العصر .
- الفزعة ، النخوة ، الشيمة .
- جرّة سكنة .
- (اللّمة) تأكل الدربونة من قدر واحد .
- التكافل (لا يعرى أحد ولا يجوع) .

- ٢ -

الطين الجاف (اللّبِنْ) وجذوع النخل ، والحصران لغة إنشاء منازلنا الأولى ، صلة حميمة دافئة في أنحاء المكان ، تتكأ دار على دار أخرى ، تصبح توائم ، تشكل بيتاً واحداً .

ولئن كانت مرابع الطفولة صغيرة المساحة ، وحياتنا فيها أكثر فقراً ، لكنها كانت الأقرب إلى الطبيعة والحرية .

فالحياة في ظل تلك البيوت ، تبدو في ذاكرة الصبي لا متناهية بلا حدود أو أسوار ، كانت ممتلئة بالثراء والبهجة والرضى .

باحاتها تعانق الهواء والشمس والطير كما لو كانت حدائق فاتنة ، ليس هناك من فصل بين الجيران ، الأفئدة متماسكة ، والإرادة موحدة والمشاعر النديّة متبادلة .

من الصعب واللاعدالة عقد مقارنة بين بيوتنا الجميلة الأولى ، وما يقابلها من غابة الأسمنت ذات الألف أو الستمائة متر مربع ، التي انتقلنا إليها لاحقاً . ذلك المستطيل البارد القلب الذي افتقدنا في أرجائه الفضفاضة الدفء والألفة والشاعرية .

إن منازل الطفولة ، تلك التي وصفها (باشلار) في : (جماليات المكان) تخلت عن رقعتها الحانية في أزمنة الأنانية ، للأمكنة الأشد فردية ، تباعد عن (الإيثار) وانقطاعاً عن قيمة الجماعة .

قد يكون (القصر) الأسمنتي أكثر سعة وارتفاعاً وجمالاً (لولا السياج) ، كما يقول الشاعر سامي مهدي ، ذلك الحاجز الصلب الذميم الذي ينفي الآخر ويقصي الإنسان .

-٣-

الحماسة ، البطولة ، الفروسية ، البسالة ، كلمات إيقاعية لها معانٍ دالة على جذورها ، تنشؤها (النحن) عبر الرقصات الجماعية نحو :

- السّاس .

- الدبكة .
- الجوبي .

وان كانت غالبيتها عروض موسمية تقام في مناسبات الأعياد والأفراح ، إلا أن آثارها الإيجابية في خلق الإنتشاء الوجداني لدى الصبي جعل حضورها مستديماً في الذاكرة الجمالية فقد هزتني طرباً متفجراً ضربات الدمام وقرع الطبول والدفوف ونغمات المطبج الشجية .
وليس ثمة من مفارقة كبيرة بين هذه الضروب من الرقص والحركات الإيقاعية التي وما يقوم بها مريدو بعض الطرق الصوفية . كلاهما يسعى للوصول إلى ذروة الانتشاء الروحي .
يصبح للوجود معنى آخر يفوق العادي ، المألوف ، المتكرر . ونحن في حضرة عالم شفيف كالمرايا يفيض بالصور والألوان والأضواء . يجعلنا حيال مشهد فريد للحياة خالٍ من الاكتظاظ والفوضى .
فالفرح الجوّاني يظهر جاذبية وسحر المعراج الروحي وتقلبه بين الأحوال والمقامات في لعبة الساس والدبكة والإيقاع الصوفي سواء بسواء .
هكذا ينبثق الفرح صاعداً من بين الحنايا ، ليُظْهر جمال العالم ، والقادر على تحويل الكوْن إلى إبداع فني غني ، وفير بالمعاني والرموز تعبر عن نسب بالغة الاتقان في الحركة والصوت والظلال .

- ٤ -

"حوّل يا غنّام حوّل بات الليلة هين .."
الأغنية في ذاكرة الصبي ، عالم ناء مترامي وراء أو قبل الزمن الحاضر حاملاً هموم المرتحل الغريب الذي ضل الطريق أو فارق الديار ، أو أتاه الليل البارد المطير وهو في قلب الصحارى ، راكباً ناقته البيضاء .
وحين رأى (خيمة) مرمية مستوحدة في هذه البرية الشاسعة الأرجاء توقف ببابها ..
فأطلت من الخيمة ، امرأة بدوية حسناء تناشد الراعي المسافر الغريب الضارب في البقاع أن يلقى متاعه ويستريح لحين انبلاج النهار ، فالطريق في مثل هذا الليل البارد .. طويل .
سمعت الأغنية التي تشدو بها (سهام رفقي) لأول مرة تنبث من مقهى (الكيتاوي) عندما كنت عائداً من الملاّ في (صرفة) عصر يوم من أيام الأربعينيات ، في طريقي إلى البيت .
نفذت نغمات الناي الشجية إلى قلبي وكما الحب الأول الذي لا نعرف كيف يبدأ أو في أي مكان أو في أيّ زمن يحدث .
وبالقدر الذي أشاعه صوت سهام رفقي من شجن عميق في روحي ، فإنه أثار في داخلي توقاً إلى البادية وحنيناً إلى مرابعها ، بوصفها الجمال الأبهى . ولعل الشوق إلى الصحارى والخيام والأباعر ، هو نفس الصوت الغائر العميق الذي بقيت تتردد أشوقه الحانية في وجدان الصبي

وهو يصغي في ليالي الشتاء الباردة إلى فاطمة ، وهي تنشئ بحكاياتها العذبة عالم (البدو) السعيد الذي تفيض بساطته بجماليات الربابة والنياق وطهارة الأرض .

- ٥ -

من دواعي التهذيب واللياقة في الفحامة : واجب إلقاء السلام ، والمبادرة بالتحية ، وإن لم تكن هناك صلة أو معرفة سابقة بين الطرفين .

فالتقاليد تلزم المقبل أن يبدأ السلام والحال نفسه بالنسبة للواقف الذي لابد أن يبادر بتحية الجالسين ..

وأصبح مثل هذا الأمر شائعاً ، ومعروفاً بين أهل الكرخ فالقلّة تحيّ الكثرة ، والصغير يّوقر الكبير وينهض من مكانه إذا كان جالساً ، والذي يخرج من داره عليه أن يلقي التحية على الجميع ..

وبقيت هذه العادة (الجميلة) سارية لدى القدامى في الفحامة وأطرافها ، من الذين آثروا البقاء في المرابع والديار .

وقد تجد لهذه التقاليد ظلالاً لها في بعض محلات بغداد القديمة الأخرى .

تُرى ما الذي جعل هذه التلقائية الحميمة تنحسر عن حياتنا ، بعد أن كانت واحدة من خصائص هويتنا الاجتماعية .

لعل الوقوع تحت سحر (العمارة الأوربية) التي إقتحمت حياتنا طوال العقود الخمسة الماضية ، أحد الأسباب المسؤولة عن تشويه جزء عزيز من تراثنا المعماري ، بعد أن إقتلعت (البيت البغدادي) الوضيء ، واستبدلته بعلب الكونكريت الأخرس.

قد تكون هذه إحدى العلل التي تسببت تدريجياً في تغيير الكثير من أنماط السلوك .

فقد حرصت هندسة (العالم الأول) طبقاً للفلسفة الليبرالية على تأكيد الفردية ، والاستقلال الذاتي ، والخروج من الـــ (نحن) و(اللّمة) إلى (الأنية)

و(الخصوصية) ، والترفع الطبقي عن الأوساط المكتظة (الشعبية) .

وبفعل التقليد والمحاكاة والامتثال الساذج للموديل الأجنبي فإن بعض منظري فن العمارة في بلادنا ، لم يتعبوا أنفسهم ولم يبادروا إلى دراسة خصائص المجتمع العراقي ، ولا اهتموا ببحث معمق أو مباشر عن صلة الإنسان بالمكان ، وعلاقة الشكل بالمضمون .

ولم يقف هؤلاء المنظرون وهم يروجون لموديلات (الدبل فاليوم) و(العمارات متعددة الطوابق) والمجمعات السكنية ، لم يقفوا على شروط البيئة وظروف المناخ وطبيعة العلاقات الإجتماعية.

كل ذلك أوجد شروخاً هائلة الاتساع في النسيج الاجتماعي ، فالاستقلال الذاتي ، حوّل العائلة الكبيرة إلى جزر متناثرة ، الخروج من (النحن) إلى (الأنا) ومن (الجماعة) إلى (الفرد) ومن (الكل) إلى (الجزء) .

تنازل عباقرة التخطيط العمراني وهم يصممون الأحياء الجديدة عقب ١٩٥٨ عن هوية العمارة البغدادية وتخلوا عن قبساتها الروحية ، فيما كان الانشغال الأول هو نقل واستنساخ الطراز المعماري للعالم الأول .

هكذا جرت المباعدة بين الجار وجاره عبر تلك المسافات الفراغية التي أقامت جدران العزلة بين الـــ (نحن) .

فتحولت بيوتنا ذات الستمائة متر مربع وعلى وفق النموذج الليبرالي إلى كتل صماء متناثرة بلا قلب ، إنكفأ فيها الفرد على شأنه الخاص .

وأصبح بديهياً في ظل النزعة الذاتية التي شاعت في العمارة أن تلقي بظلالها السلبية (الأنانية) على العلاقات الاجتماعية ، التي بات فيها الجار غريباً عن جاره .. وتدريجياً بدأت الحياة تفقد حرارتها ، ويتلاشى دفء الصحبة ، وتذوي الصلات بين أهل المحلة الواحدة .

ومن المعطيات الجمالية والإنسانية للريادة الغربية التي ارتدينا ثوبها الفضفاض دونما وعيّ أو إرادة والذي يشبه لباس المجانين ، أن نسمع ونرى بأن إنساناً ما ، سقط ميتاً في داره وتم مواراته ودفنه وانتهت مراسيم عزائه ، وجاره لا يعلم عنه شيئاً .

وإذا طلب أحد نجدة من جاره أو رفع صوته مستغيثاً فإن نداءه لن يتجاوز (أسوار) الحديقة تصده الجدران العازلة أو يتحطم على الأرصفة الباردة .

هكذا إنطفأت جماليات الدربونة وذابت بهجة (الطرف) في كيمياء الهندسة الغربية (الفراغية) !!؟

المغامـــرة

-١-

حاول الصبى اختبار نصوص (منقلة) الشتاء ، وحكايات الليل ، وهو يرقب من وراء نافذة الحجرة (بئر) البيت ، ينتظر خروج (الملك - الصالح) منها . لكن أحداً لم يظهر ..
وليال لا يعرف لها عدداً تتوالى وهو يرنو صوب (البئر) دون جدوى .. ترى أي الوسائل بمقدورها أن تحول المجهولات إلى معلومات للتحقق من (ملك البئر) ، الذي تداولت أخباره الأمهات ؟!
دشن صبية زنكو أول خطوة نقدية في دائرة الواقع حين جاس (محمد الكسار) مقبرة الشيخ معروف ، يبحث عن (الغريرية) بين القبور المتراصة ، وفي الظلمات الموحشة عن (الغريرية) ، واحدة من القوارض المفزعة التي للوقوف على حقيقة (الغريرية) .. لكنه عاد خائباً .

٢

وضع صبري المقولات الشائعة عن (الخناق) في مربع الشك ، فاجتزنا برفقته أرض الخوف .. وواصلنا الطريق إلى ما وراء (الجعيفر) لاختزال الفاصلة العميقة بين التصور والتصديق .
لم يكفّ عقل الطفولة عن مغامراته ، فيصعد بالريبة المضطربة إلى أفق الأسئلة :
- " لم يخرج من هذي البئر ملك صالح ؟! ولماذا (الروح) تخرج في ظلمات الليل ؟!
- " من رأى تلك الكائنات "؟!
ولماذا لا يراها الآخرون أيضاً ؟!
.. ويستمر جدل الطفولة .

٣

العواقب اللاحقة على ارتياد الأمكنة القصية (الجعيفر - المنطقة) كانت تجربة عميقة الدلالة والمعطيات ، فقد أسقط الصبية بقيادة الفتى صبري جزءاً من الدعاوى والشائعات .
بعد أن تبددت اسطورة (الخناق)

٤

توغل عقل الطفولة في محيطات المجهولات المشتبهة ، فجابهوا الخوف بشجاعة لجرد الوقائع الموضوعية وعزلها عن الأخيّلة والتوهمات .
المخلوقات الخرافية التي استولدها الخيال الشعبي الطليق (الرفش) الجنّي ، الخناس ، فريج الأقرع ، الغيلان ، ليست وحدها الشر المستطير المهدد للوداعة الإنسانية ، فثمة ائنات أخرى (هلامية) مفارقة للموجودات الحسية التي تحتشد بها أخيّلة الطفولة ، التي تأتي أو تقوم بأفعال

عجائبية على نحو (سحري) تتجاوز فيها الطبيعة وقوانينها المطردة .. ولعل ولعلنا بهذه الكائنات وبعوالمها الغامضة ، زاد من
فضولنا ، ونحن نقترب بخوف وحذر من الأزقة المظلمة والخرائب والبيوت المهجورة ، محاولة اكتشاف الضفة الغائبة من حولنا .

٥

لم يعد بوسعنا الاكتفاء بتلقي حكايات الأرواح والأشباح صاغرين ، فالأمر الأكثر إلحاحاً والذي كان يؤرقنا ، هو (الكيف) أي (السؤال) – والمطالبة بالتحقق (الحسي) من وجودها . هكذا أصبحت المقابلة بين (اللامرئي) و(المرئي) ، (المتعالي) و (المتعيّن) ! لم تزد تعليقات فاطمة المقتضبة عن هامش ضيّق يزيد المعضلة غموضاً ، وتردد "الإيمان" وضرورة الكف عن السؤال " .

– ٦ –

صفحة أخرى من البحث والاستقصاء تنتظم في حوارات مطولة بين الأبناء والأمهات ، تصير أسئلة ملحة تضيق بها صدور أولي الأمر والآباء .

* *

على ضفاف الأربعينات تشرق الذاكرة بمغامرات الطفولة .

أول هذه المغامرات ، يوم أقدمنا على استقصاء حقيقة (الخناق) ، فانتظمنا كما القافلة (انعيم ، ربيع ، يحي ، زهير ، محمد ، عبد الله ، وأنا) فيما يتقدم صفوفنا صبري ، وهو يضع خطوته بإقدام وثبات ، في الطليعة دائماً .

اجتزنا (الفحامة) الشيخ علي ، المشاهدة، الرحمانية ، الجعيفر . ،

مررنا بغابات النخيل والشجر الظليل ، اندفعنا وراء صبري بين البساتين ، نشم عبق الرياحين ، نلتقط الثمرات انحدرنا إلى ضفاف دجلة جذلين . وطفقنا نرمي (الحصا) إلى مديات الماء ، ثمة نلج غابات النخل ، نتراكض فنسابق الطير ، ونعدو إثر العصافير ونضمّ براحة اليد فراشات البساتين ، ونعبث بشقوق الطوفات ، فتنفجر في وجوهنا (كورة الزنابير) ، فنلّوذ بالفرار ، ننحدر مرة أخرى إلى النهر ، غدّ أعناقنا بلهفة آسرة جهة (الجسر الحديدي) ، لعلنا نحظى برؤية القطار الذي سمعنا به ، ولم يره أحد منا بعد . ألقى صبري موعظة الشجاعة ؟! "..لابد ان نواصل البحث عن الخناق الملعون ، فقد كدنا نقترب من – المنطكة – فمن كان خائفاً ، ضعيف القلب ، فليعد من حيث أتى ، قبل أن نقتحم مأوى الخناق . ومن أراد أن يمضي معي حتى النهاية فليرفع يده "

اختلطت في صدر الصبي الرغبة بالرهبة ، وما بين روح المغامرة والتوق إلى المجهول، والمخاطر المحتملة . اخترنا الوقوف إلى جوار صبري .. والتئم الجميع من حوله ، .. ومضينا .

على حافة البساتين ، توارى العشب ، وتناءت الأشجار نضرب أقدامنا في (الجول) ، الذي بدا موحشاً ، تذكرنا قصص الليل ، فاشتدت بنا العزلة ، وليس إلا صدى خطواتنا المضطربة، وقلوبنا الغارقة في بئر الخوف ، لم نعد متباعدين ، فقد اقتربنا من بعضنا، كتفاً بكتف، ويداً بيد ، ننقل أقدامنا بحذر وقلق . تسمرنا فجأة قبالة دار مهجورة خربة تقدم صبري وتبعه محمد الكسار ، انتزعا بقوة الباب الصدئة ، ألقيا بها أرضاً ، وغابا زمناً، فازددنا توتراً وأصبنا بالذعر بعد أن ظن البعض بأنهما سقطا في فخ الخناق كدنا نفرّ ونعود من حيث أتينا، لولا أن أتانا صوت صبري الذي لا تخطئه أذن أيٍّ منا ، ينادي :

تعالوا .. تعالوا .. انظروا هذا هو المكان الذي قالت الناس بأنه مأوى الخناقين

وولجنا الدار المهجورة :

تابع صبري القول وهو يؤمئ بيده :

" لا يوجد أحد ، إلا الجرذان المذعورة لا أنس في الدار الخربة ولا جان " .

هيا نمضي نحو الجسر .

حملتنا الأشواق وحمّى النصر .

واجتزنا قوس الجسر الحديدي ، ونفذنا حتى جئنا جامع (براثا) آوتنا السدرة الكبرى وضحكنا صفقنا ، مرحاً ، فرحاً فقد اجتزنا خط الخوف ، لكن الوقت في (عز الظهر). واقترب الصبية من أسوار براثا ، وازددنا في تلك الرحلة علماً ، بالجول ، بالجسر ، بـــ (المنطقة) الواسعة الأرجاء ، وبدار والموت . هي ذي أيضاً مقبرة أخرى ، لم نعرفها من قبل .

تطوى تربتها مئات الموتى ، وتمشينا وتحت ظلال الدفلى ، بين الأضرحة ، وقرأنا فاتحة القرآن ، واجتزنا الأسوار ، وعند صلاة العصر عدنا .

-٨-

أشاعت منقولات الليل بأن الأرض الخراب مأوى الجن تختبئ تحت ركامها ، وتنسل في العشيات المظلمة أشباح هائمة وأرواح ضاجة وقيل أن (الطمّة) هي المكان الأثير التي تتبث فيها تلك المخلوقات، فأتيناها ليلاً ، وتجولنا حول تلال (الأسباخ) .. وأفران النار .

لم ير أحدٌ منا إلا العتمة والصمت .

وطفقنا في ليل اليوم الآتي ، نبحث في الأرض المسكونة ، وفي الطرقات المنسية ، وعن الأمكنة المنزرعة في الظلمات واقتربنا من منازل عتيقة بائدة ، ووقفنا وسط الخرائب ، ونحن متأهبون كل منا يضع طرف دشداشته بين أسنانه ، متحفزون للفرار، إلا الصبي ذي الوجه

النحاسي الصلب ، أبى أن يشاركه أحد متعة الأقدام ، فاقتحم لوحده مهاوي الفزع المقيم ، وهو يصيح بأعلى صوته :

" هيا ، اخرجوا من جحوركم إن كنتم حقاً موجودون ، هأنذا اتحداكم .

فاخذنا نردد وبصوت واحد :

" ياربعي لا تخافون .. تره الكاع مسكونة " بعد أن كاد الرعب يأكل أكبادنا !

-٩-

قالت الأمهات وهن يوصين أولادهن :

".. لا تقربوا الشط عند الغروب أو يسبح أحدكم في النهر لوحده ، فـــ (السعلوة) تتربص بكم هناك . إنها تترقب اللحظة الغائبة حتى تلتقطها عندها تفرز أصابعها الشوكية في أعناق الصبية والأطفال ثم تنزل بهم إلى قاع النهر ، لتلتهم أجسادهم " .

التوق الطفولي يقدم الخطوة الأولى ، لا يلبث أن يستعيدها ، ويرجع أخرى ، بين التردد والأقدام ثم يختار المغامرة لمعرفة ما ينطوي عليه تحذير الأمهات "

لابد من إسقاط الخشية ، لمعرفة وحش الماء ، فالتجربة وحدها هي التي تثبت أو تبدد الشائعات وهكذا نزلنا النهر عند الشاطئ وفي حومة (الغريج) لم يعد الشط بعبعاً حتى في أول الليل وما بعد صلاة المغرب صرفت المغامرة الخوف ، واجتازت الأفئدة محاذير الأمهات ، خضنا في المياه الدافئة من شاطئ إلى شاطئ من حبيب العجمي إلى شريعة النواب لم يعد الرفش أو السعلاة التي صمم مشهدها الخيال المنسرح إلا تجريداً بوصفها رمزاً للشر والقبح والفظاظة ..

الصبيّ المتمرد ، المغامر ، أغضب والديه مرات عديدة. فقد فاجأهم يوما باقتحام حمام النساء ، واحتيالّه على معروف العطار ، وتسبب في قلق أمه ، وإيلام أبيه عندما نزل النهر لوحده ، وكاد أن يشرف على الموت وتبتلعه مياه شط خضر إلياس لولا أنْ أنقذ في اللحظة الأخيرة .
ولم يكفّ الصبيّ عن ضجيجه وهو يقاوم إحتجاج أمه بسبب إصراره على إقتناء جروّ صغير في الدار.
ثم فراره المتكرر من (الملاّ) .. ومشاركته في حرب الأطراف والتي خلفت جروحاً بليغة في رأسه وعلى جبهته ..
وتعرضه لخطر الموت مرة أخرى في شارع الشيخ معروف بعد أن كادت تطويه إحدى عجلات موكب تشييع شهداء وثبة كانون ١٩٤٨
ولم تنس أمه حتى اللحظة القائمة ، الهلع المميت الذى أصابها وكاد يودى بحياتها جراء غياب الصبيّ في ساحة السويدي وعند الجسر (العتيق) في واقعة شهداء (بورت سموث) ، هائماً ، أو شاهداً لعرس الدم في غابة البنادق والموت والرصاص .

– ١ –

مغامرة البحث عن التكوينات الغامضة .
محاولة مبكرة لفض السرّ المخبوء في عالم الأنثى .
تُرى هل بوسع الطفولة أن تتخطى المحظور ، المستور بدعوى توسيع دائرة المعرفة ، لتبرير ما أقدم عليه صبيّ في الثامنة من عمره من فعل مثير وذميم في آن ، خطط له ونفذه بعزم واختيار ؟!
قد يكون (ذنباً) – صغيراً أم كبيراً في فقه الناس ورأي العقلاء .
لكنه (دون ذلك) في جوهر التجربة ودواعيها . إنه إنتقال من(الماقبل)الى(المابعد)،
إذ قد تكون الدوافع هي توْق الكشف ، أيّ : تحويل المجهولات إلى معلومات .
أيّ توسيع رقعة الما بعد : تجربة اكتشاف الجزء المخبوء من عالم المرأة لإقتلاع الجهل المعرفي .
في البدء إختلط الخوف بالدهشة وأنا أنزل بهدوء وتؤدة قاع السلّم الحلزوني لحمام (شامي) النسائي، وجدت نفسي فجأة في باحة (المنزع) ، ورأيت ما رأيت؟!! نسوة عاريات ، وأخريات يحطن أجسادهّن بمناشف وأردية مفتوحة الصدور .
صدمة المشهد الكوني الأول من نوعه في الذاكرة الصورية ، جعلني أتحول للحظة لا أعلم مداها إلى قطعة باردة صمّاء .

الصراخ المستغيث الذي إنبث كالعاصفة ، وحده الذى أعادني لنفسي مرة أخرى .
إضطربتْ باحة المنزع ، وعلا ضجيج الأصوات ، مختلطاً بالعويل والسباب.. ثمة تعالّى الاحتجاج صراخاً وشتائم وعبارات غامضة توارت النساء العاريات إختبئن الواحدة وراء الأخرى .
أُصبت بالحيرة وتملكني الخوف ، لا أدري ما أفعل ؟! بعد أنْ أدركت في تلك اللحظة عظم الذنب الذى ارتكبته وأنه لابد من المساءلة والعقاب .
خرجت إمرأة قبيحة كالغول شبه عارية حاسرة الصدر تنبث منها أبخرة الحمام ، قاهرة ، رقبة غليظة ، وشعر منكوش وجه غاضب مترهل يتصبب عرقاً .. وجسد ضخم بدين ، تقدمت نحوى هائجة مائجة ، زلّزلّتْ صرختها المبحوحة الأرض من تحتي .
"كيف أتيت يا إبن .." .
شعرت بأن جسدي يتفكك وأن قدميَّ تتراخيان .. تتخليان عني وأن شيئاً كما النار ينسرب من أذني وانفي ، التهب رأسيّ بأصوات محطمة .. قلبي يسقط في غوْر عميق .
" من أنت؟
"وكيف جئت إلى هنا؟!
"وماذا تريد يا إبن .. "؟!
شعرت بالعذاب المستطير ، وأنا أحاول إستيعاب أسئلة المرأة الوحش .
غاب الصوت ، وانعقد اللسان. عادت الجلجلة ، وتواصلت الشتائم صخباً مدويّا .
أكاد أسمع نبض الدم في عروقي ، فجأة إلتقطت المرأة الغول (عصا) ، وهي تهم كما الوحش المنفلت ، الانقضاض عليَّ ، ولكني أفلّت من بين يديها مرة أخرى وأخرى ، عندها جنّ جنونها ، فعاودت محاولتها لمرة ثالثة ،ولكن دون جدوى .. توقفت فجأة ، وكأنها بدأت تفكر بشئ آخر ، بعد أن هدّها التعب ونالّ منها الإعيّاء .
ولم تكن تلك اللحظة ، إلا بمثابة (إستراحة محارب) لالتقاط الأنفاس . فقد ضربت العاملات حصاراً على بوابة السلم الذى يفضي إلى خارج الحمام ،
إستشاضت المرأة ذات الصدر المترهل غضباً بعدما أخطأتني عصاها ، توترت عروق الرقبة وزاد سخطها المحموم ، وهي تصك أسنانها ، وكأنها تقبض على فكيها ، لئلا ينفجرا؟!! أو يسقطا من شدة الغيض ، الجسد الهائل المترامي الأبعاد ، يزيح العاملات عن منفذ السلم الحلزوني ، تتلفت بعينيها الجاحظتين ذات اليمين وذات الشمال ، صرخت "إئتوني بالطاسة ".
قفز قلبي هاتفاً : التوبة . حاولت الأفلات من بين قدميها ، لأتناول أول السلم ، لكن قدميّ إنزلقتا على الأرض اللزجة ، فهويت ، حاولت أن أنهض ، فأنكفأت وسقطت ثانية .

أحسست بقطرات دافئة ، تسيل على خديَ ، اكتشفت بأن جرحاً ينزّفّ من رأسي ، مدّتْ المرأةُ المتوحشةُ يدها ، وهي تحاول أن تجتثّ شعري . وقعت أسيراً في قبضتها ، رأيت بيدها الأخرى طاسة نحاسية حمراء ، بلون النار ، صرخت متوسلاً : التوبة !
تحركت إمومة النسوة الأخريات ، وهنّ يتوسلّن بالمرأة الغول ، ويتشبثن بها ، أن تعفوّ عنّي ، فتراخّتْ يدها ، ونظرت إليّ ، بعد أن أنهضتني من الأرض ، وهي تقول :
"إرفع رأسك ، وأنظر في عينيَّ هاتين ، الويل لك ثم الويل ، إنَ عدت أو حاولت ثانية نزول الحمام ، سأقطع عنقك يا إبن .. " .
عندما وضعت خطوتي الأولى خارج الحمام ، أطلقت ساقي للريح ، في الفلاحات وأنا أتحسّس بيدي الجرح ، الذي ما يزال أثره بيّناً حتى اليوم ، شاهداً على مغامرتي .

- ٢ -

هل كان حباً .؟!
أم محض ميل فطرى للأنثى ؟!
أم رغبة مبهمة عابرة ؟!
أمضى الصبيّ أوقاتاً بهيجة وهو يطوف حول الدار التي فيها من إختطفت قلبه .
ينتظر بشوق. ويطيل المكث. متلهفاً ، علّ رتاج الباب ينفرج ، فينبثق الضوء. ليغمر الروح الهائمة بكل ذلك البهاء اللامتناهي ، تُرى ما الذي يجعل صبياً في نحو العاشرة من عمره يعلق بشابة في ضعف سنه؟!
بدأ الانشغال اللذيذ أو العذاب الجميل مُنذ تلك اللحظة التي رأى فيها ذلك الوجه الدافئ الحميم الذى أيقظ عقله وحواسه على مقام الجمال الأعلى ..
فعاد مرة ثانية متعللاً بذريعةٍ ما ،
يطرق الباب ، فتطل القسماتُ الخمريّة العذبة .
يضطرب الصبي ، تتناثر كلماته. ويكاد يذوب شغفاً. وبصوت خفيض يهمس: "طيارتي هوت على سطح داركم" !
ويجئ مرة أخرى ، واخرى، ليزعم بأن الكرة أخطأت مرماها ، لعلها سقطت في حوش البيت !
في كل مرة والمرات اللاحقة يسعى أن يظفر بتلك اللمحة .. الوقفة ، اللحظة ، فيملأ عينيه وقلبه وذاكرته خلال الإنشغال في البحث عن الشئ (الموهوم). ليشم من رحيق القرب. الأنس .

لن ينسى منذ أن كان فؤاده طرياً حتى اللحظة القائمة رائحة الورد الجوري تعبق منها ، تنبث شعاعاً يسري في أوصال الروح . مذ تلك اللحظة التي حملّته أمه طبق (المحلبي) في رمضان إلى ذلك المنزل المنزرع تحت الأرض في الدربونة المجاورة لدكان نافع.
هاهوالظلُّ البهيُّ ، يأتيني من وراء الزمان البعيد ، سحابة من حرير،تنثّ وردا، و حنينا،ووجدا ،وذكرى .

- ٣ -

لعلّ الإفصاح عن أسرار القلب. والإبانة عن لواعج النفس ، كانا وراء أول مغامرة تشكيلية يُقدِمُ عليها الصبيُّ: إذْ (شخْبطّ) بقشر الرّمان ، فوق الجدران:
كرة من نار !
الحرّية بلّون الخدّ والتفاح العجمي .
حصاناً يعدو .
هلاّل العيد .
نجماتٍ سبعاً وطيورا .
العقل الضارب في رحبات الكرخ ،
إستولّد فوق جدران الدار الأولى إمرأة فارعة كالناقة أول إنثى .. أول حب .
يأتيها في بادئة الصبح فيمرر كفيّهِ على الخدينْ ..
ويقبل قوْس العينْ ،
كبُرّتْ إمرأةُ الحائط وكبرنا .
كانت مغامرة (الانثى العروس) إحدى محاولات الإبانة عن الذات (نقل الداخل إلى الخارج والإفصاح الحرّ للطفولة دفع الصبي إلى تشكيل (عروس الصّلصّال) وإلى إقامة أنصاب من الرمل عند شاطئ حبيب العجمي تتزاحم فيها النياق والنساء والغزلان .. فيما بقيت آثار مغامرة الخطوط التشكيلية بقشر الرمان على جدران دار المختار زمناً قبل أن يتلاشى الحائط وتزول الدار ؟!

- ٤ -

طوقت طفولتنا الأحاديث الشائعة التي تتناقلها الأمهات ، عن آثام إيواء الكلاب أو إقتنائها ،
تتوالى تحذيرات عمتي فتحية وهي تؤكد : بأن مجرد الإقتراب من الكلاب السائبة يُذهب الخير ويزيل البركة ، ويطرد الملائكة والأرواح الطيبة ، ويحلّ في الدار شيطان رجيم ؟!!.
لذلك رفضت عمتي بعناد وزادت عليها جدتي فاطمة وهما يحذراني من مغبة الاحتفاظ بـــ (الجروّ الصغير) وتطلبان مني التخلى عنه وإطلاقه فوراً .
لأن شراً مستطيراً سينزل بحياتنا وأن الله لن يقبلني يوم القيامة ؟!

واقسمت عمتي على الوشاية بي لدى عمي إن لم أترك الجروّ الصغير لحال سبيله .
قلت لهما أمهلاني قليلاً ، وسوف أفعل ما تريدان ، لكني أضمرت نيّة أخرى ، حاولت تضليلهما والتحايل عليهما للإفلات من رقابتهما الصارمة .
وبعد أنْ أوهمت عمتي وجدتي بأني سأعود بالكلب السائب الصغير حيث وجدته قرب دار الشيخ عبد الله الخضير .
إقتنصت فرصة إنشغالهما فغافلتهما وحملته متسللاً إلى السطح .
بدلاً من أن أعيده إلى المكان الذى إلتقطته منه.
وكنت قد رأيته وهو يتعثر في مشيته حسبته تائهاً ضلّ الطريق إلى أمه. تبين إنه حديث الولادة لا تتسع عيناه الضوء ، وعواؤه رخواً كما الأنين متقطعاً .
فأشفقت على حاله، وحملته إلى (الدربونة) لمحتني (صديقة) ، فأبدت
إمتعاضها ، ووجهت لي لوْماً شديداً ، لإعتقادها بأني إنتزعته من حضن أمه ،لأنه لا يزال رضيعاً ، فيما كان رأيّ بطوشة غير ذلك تماماً ، فقد عدّته (حيواناً نجساً) وأن من يلمسه يفقد طهارته ، إلا إذا إغتسل سبع مرات ، وأن الدين حسب رأيها يمنع إيواء الكلاب !
وضعته في صفيحة في ركن السطح لأوفّر له ظلاً يحميه ويقيه من حرارة الشمس .
أمي تقف فجأة أمامي وهي تقول : .. كنتُ أعلم بأنك تغافلنا .. والآن عليك أن تدع الجروّ المسكين لحاله ، لأن وضعه في هذه الصفيحة الساخنة وفي هذا الطقس سيقضي عليه ، واعلم بأنك ترتكب إثما كبيرا في حال الاحتفاظ به لان أمه تبحث عنه الان ، وإنه لن يشعربالراحة والامان، الا إذا عاد إليها ، واعلم بأن له روح مثلنا، وإن نباحه المتكرر كلام صريح يريد أن يقول لنا بأنه يريد البقاء في حضن أمه ، وإذا كنا لانفهم لغة هذا الحيوان فإننا نشعربحزنه على فراق أمه ،
نزلت به إلى (الحوش) ، سكبت أمي قدراً من الحليب في وعاء ، فلعقه بلهفةٍ وعجالة ..
قالت أمي ..(قُمْ الآن وإحمله إلى نفس المكان الذى وجدته فيه .. وعد بسرعة لتغتسل وتطهر نفسك مما لحقَ بك من أوضار) ؟!
لم أعد قادراً على مقاومة تفسير أمي وأنا ألمس مدى إشفاقها على الكلب وعلى أمه ، وأنا أضع نفسي أمام خيارين خيار الاحتفاظ بالكلب ، وخيار غضب العائلة . والخاسر الوحيد في أخر الأمر هو هذا الكائن الضعيف الذى لا حول ولا قوة له .
فآثرت الانصياع لأمر أمي .

– ٥ –

عمدت إلى زاوية خبيئة في سطح الدار أودعتها الطيور الثلاثة التي جاءني بها وحيد عبد الله الكاظم . سعيت منذ البداية أن أحتفظ بها كأحدى هوايات الطفولة التي لا تتسبب لأحد في إزعاج أو أضرار .

عندما اكتشف أبي الأمر عاتبنى عتاباً رقيقاً على الضد تماماً من توقعاتي . الذى خشيَ أبي منه أن تتحول هذه الهواية الوليدة إلى (عادة) تتملكني . فأَصبح معها (مطيرجي) كأحمد البطوشة الى كان موضع نقد الآباء والأمهات في الدربونة .

واقترح علي أن إحتفظ بواحد من الطيور فقط ، وان أطلق الطيرين أو أعيدهما إلى صديقي وحيد .

– ٦ –

تخطى الصبي وصايا أمه ونزل النهر لوحده عائماً عند الضفاف غير بعيد عن الجرف .. وحاول أن يجرب الاقتراب من المياه العميقة ، فانزلق من إلى (الغريج) ، حاول العودة إلى الضفاف فأخفق في الوصول ، ووجد نفسه في قاع النهر غريقاً. أدرك أن حياته أوشكت على الانتهاء في تلك اللحظة الفاصلة بين الوجود الغائب والعدم القائم ، جاءه المدد المفاجئ ، فأحسّ فجأة أن يداً تمتد إليه ، فتنتشله ، وتدفع به إلى الشاطئ . وقد أجريت الاسعافات اللازمة ليستردّ الصبيُّ وعيّه بإفراغ المياه من جوفه بعد أن إبتلع كمية كبيرة منها ملأت رئتيه لم يغب وجه (أبي علي) رغم تقادم الأيام والأعوام ، وهو يمّد يديه ليرفعني من الأعماق ، وأنا في حالة إعياء شديدة بين الحياة والموت .

– ٧ –

لكن الصبيّ الذى ما كاد يصغي إلى وصايا أمه وتوسلاتها ، حتى ينسى في اليوم التالي ، يجذبه عالم الحركة البهيج ، فقد جرّب العبث بعلب الكبريت وتسبب في إشعال النار في حجرة الأمتعة .

وجلجل صوته بين جنبات البئر ينادى الملك الصالح أنْ يخرج من مكمنه .. فألقى ما ألقى من الحجر والحصا ، وفي غفلة من أهل الدار أسقط في قعرها (دجاجة حيّة) ، فنال من عمه عبد الجبار جراء فعلته تلك عقاباً مروّعا و شديداً .

وتمرد على محاذيروالديه من مغبة الانزلاق الى صراعات الاطراف (الكْسار) ، لكنه بدل أنْ ينصاع للامر ، إقتنى وسائل القتال : (معجالا ، وحصا) ، فأقدم برفقه أترابه في الفحامة على خوض نزالات فظة ، مع محلة (المنصورية) ،عند مستشفى العزل (الكرامة) ، وأصيب خلال تلك المعارك العنيفة ، بجروح نافذة أحدث واحد منها حفرة في رأسه ، وآخر في جبهته .

- ٨ -

الخروج من قوقعة الأزقة إلى فضاء (الجادة) هناك : في حوض شارع الشيخ معروف الذى يبتدئ من (الأزرملي) و(سينما قدري) وينتهي عند المقبرة ، ونحن نتحيّن فرصة مرور (الربل)، وما إن تقترب حتى نعدو إثرها ، بلا مبالاة أو يكترث أي منا من إحتمالات الانزلاق تحت عجلات العربة أوالتعرض لخطر الدهس من السيارات المارة ، متتناسين تحذير الأمهات ، نعلق بـــ (المشبك) خلف الربّل ، يختلط الخوف بالمتعة ، قد تطول المسافة أو تقصرّ ، لكنها مغامرة غير مأمونة العواقب، إذ ينته (العربنجي) في اللحظة وعلى التوّ ، فيرفع السوط (القمجي) فينقض علينا بالضرب المتتالي بكل ماؤتيّ من قوة .. فإذا لسّعنا أو مسنّا مسّا خفيفا فإن وجع السوط يترك على جلودنا أثرا كمالوالجرح الممض، فلا يعد أمام الصبي عندئذٍ أي خيار ، إلا أن يلقي بنفسه إلى حوض الشارع فيسلخ (الأسفلت) الأيدى والأطراف وقد يتسبب السقوط برضوض في إنحاء الجسم . عندها يتحول الالم المبرح إلى ردة فعل شديدة الغضب واحتجاج صاخب فنصرخ :

(العربانة مكسرة وجروخ ما بيها) ، (عربنجي شيل إيديك هذا الحجي ما يفيدك) .

.. وسرعان ما يستعيد الصبيّ روح المغامرة لا قتناص متعة أخرى ، متناسياً إيلام التجربة الأولى كما لو أن الأمر ضرب من العناد الطفولي .

-٩-

الهروب مرة أخرى من (الملاّ) قبل انتهاء الدوام ، للظفر بمتعة السباحة ، وتزجية الوقت في اللعب (كراً وفراً) على ضفاف دجلة ..

ومحاولاتنا المتكررة في تضليل (الملاّ حميد) في معالجة (الختم الأزرق) ، الذي كان يطبعه على أفخاذنا قبيل (صرفة) يوم الخميس كيلا ننزل النهر .

وقد تمكنت لمرات عديدة النفاذ بفعلتي دون ان يكتشف حقيقة التمويه الذي أجريته، قبل أن أقع بين يديه ، ويقيم على حدّ (الفلقة) ، إثر وشاية من مساعده (الخلفة)، الذي رآني وأنا أعوم عند (شريعة النواب) .

-١٠-

استشعر الخجل المرّ كلما تذكرت واقعة (الاحتيال) التي خططت لها عامداً متعمداً بالتواطئ مع بعض زملائي في (الملاّ) ، عندما قمت بتنفيذ تلك اللعبة المهينة ، وأنا أضع في يد معروف العطار عملة نقدية مموهة ، أوهمته أنها (قران) (*)، وهي في الحقيقة ليست إلا فلساً واحداً بعد أن قمنا بتغليفه بورق فضيّ رقيق ، مستغلاً ضعف بصره ، كونه (أعشى) .

.. وكان (معروف العطار) نابهاً ، إذْ اكتشف التزوير بعد أن (فرك) بيده العملة النقدية ، فقذفها بوجوهنا غاضباً ، فلذنا بالفرار ..

جسر الـــدم

- ١ -

الروايات المتواترة ، توثق بأن أول ما كتب على جدران (زنْكوْ) عام ١٩٤٧ ، كانت جملة مفيدة حمراء بلون الدم : فلسطين عربية" .. ثم خرج المبتدأ والخبر (لافتة) من الدربونة ذاتها، في موكب ضم عبد الرازق الدليمي ، جميل المشمش ، محمدين ، زيدان ، وأبي .. يتقدمهم الفتية والصبيان .

مهدي ، هادي ، أسعد ، سعود ، جبار ، مجيد ، نزار ، صالح ، مداح ، سموع ، إرحيم ، صبحي الغناش ، صبحي عبد الجبار ، هاشم ، عزاوي ، مزهر ، صبري ، صلاح ، زهير محمد ، عبد الله ، يحي ، رشودي، رياض الكركة ، وأنا .

تمضي (زنكو) تطوي الطرقات وبرفقتها الفحامة والفلاحات وتعانق الأصوات والأيدي لافتة الدم ، تعلو تكبيرات جامع صندل ، وزغاريد النسوة ، وهتافات الفتيان ، تنضم إلى الموكب أفواج أفواج ، تحتشد الأفئدة من كل الأنحاء تحت اللافتة الحمراء ..

وعند جسر الشهداء ترتفع أعلام الوطن وفلسطين والثورة العربية .

-٢-

لافتة الدم جمرة (الوعّي القومي) ، تستعر في أرجاء الكرخ فيهبّ الفتية وشبيبة صوب (عكيل) ، حتى (كسار) الرجل الكهل ، أعلن في مقهى (عريبي) النفير قائلاً : حيّ على الجهاد .. حيّ على الجهاد؛ فانتظم الناس صفوفاً وساروا صوب مركز التطوع دفاعاً عن عروبة فلسطين . وكان في مقدمتهم فتيان (زنكو) ورجالها . الذين أحرقوا المسافة بين الكلمة والفعل ، فألتحق بكتائب الجهاد من أبنائها :

مهدي عبد الجبار الراوي

صالح حميد الغناش ،

فليفل السبتي .

عبد الجبار جمال

أحمد الصكلاوي .

مضوا إلى فلسطين وهم ينشدون :

لاحت رؤوس الحرابِ

تلمع بين الروابي

" هيا فتوة للجهاد ..

يا أمنا كفي الدموعا

وانتظري لي رجوعا

فإن ذهبت شهيدا ،
نادي بلادي بلادي
هيا فتوة للجهادِ
وعلى جبهات القتال في (جنين) ، أبلّى فتية زنكوّ بلاءً حسناً .

-٣-

وعندما إنبثقت (الثورة الفلسطينية) وتصاعدت عملياتها البطولية في الأرض المحتلة، كان لدربونة زنكوّ دورها الريادي ، في المقاومة المجيدة فقدمت على طريق الحرية في ١٩٦٩/٧/٣١ الشهيد سعد عز الدين الراوي الذي قاتل العدو الصهيوني في الغور الشمالي بفلسطين ليكون أول فدائي عراقي في تأريخ المقاومة .

-٤-

وترفرف رايات الدم مرة أخرى ، ويستمر الايثار النبيل ، ينهض فتى زنكو (المقدم الركن هادي عبد الجبار) فيقود كتيبة (قتيبة) في حرب تشرين (أكتوبر) ١٩٧٣ ، وعلى مشارف القنيطرة السورية يسقط شهيداً ، من أجل فلسطين ، ومن أجل بلاد الشام معاً ، فكان دمه ثمناً لدفع الأذى عن دمشق بعد أن كادت تهوى في قبضة العدو الصهيوني .

-٥-

ومن الدربونة الضيقة إلى رحاب الكرخ الأخرى وإلى الوطن كله ، .. تلتحم الفحامة بالأطراف الأخرى ، لتواجه الرصاص والموت في ساحة الدم وعلى طول الجسر العتيق (١٩٤٨) فيسقط الشهداء :

- مهدية الكرخية .
- سليم الدره .
- قيس الآلوسي .

-٦-

الشهداء كائنات خلود العراق ، حاولوا المحافظة على الوطن ، الذي تضافر على تشيّيده الذكاء والإقدام والأجيال في رحلة العزم والكبرياء والثقة المتناهية بالنفس ، والوعي العميق بهموم الأرض وأمنيات الشعب .

-٧-

العراق عروبة في البدء والمنتهى .

-٨-

على خط الوطن الذي يمتد من العين إلى العقل والفؤاد احتفظ العراقيون بحرارة، القضية الأولى من التقسيم إلى النكبة وما تلاها من العاديات والأرزاء .

-٩-

ولم تكن وثبة الجسر إلا محاولة شجاعة لتصحيح الأشياء وتصويب المواقف إزاء قضية تحمل كل المعاني عبر المواجهة الأليمة بين :

الكلمة والرصاصة .

الأغنية والموت .

الحرية والعبودية .

الوقائع تلك وهذه ادخرتها ذاكرة الصبي شهادة على الفوضى والاستبداد

فقد رأى بعينيه كيف انهال القتلة بالبنادق والهراوات الغليظة على جموع المواطنين شباباً وصبايا ، رجالاً ونساءً .

تلك القوة المدمرة العمياء لا حدود لفظاظتها .. فلا الأخلاق ولا البراءة تستطيعان أن تقفا بوجه الوحشية .

الهروات تتوالى على الرؤوس والرصاص الأعمى يخترق الجماجم والصدور ، القهر النفسي ، الإيذاء الجسدي والبكاء ، هو كل الذي خرج به الصبية من تراجيديا الجسر.

تنهض (مهدية) من بين ركام الشهداء القتلى تتدفق فورات الدم على جسر الأحزان تشدو بالأشعار ، تنادي الأم الثكلى ، تهتف بالحشد الهائل :

" تحيا الوثبة .. ثمة تختم نص الجرح :

" أم الشهيد تصيح وين المعركة يا ناس يبكي ابن الشهيد أصبح بلّيه فراش" .

ينهمر الموت رصاصاً أعمى آت من فوق قباب المسجد ؟!

يوقد في الجسر النار .

البنادق المنصوبة فوق مئذنتيّْ (المرادية) و (حنان) ، تصبّ الموت .

تهوى (الكرخية مهدية) ويموت الشعر

ويسود الصمت .

ينبثق الدم يصبح صوتاً في حجم الكون .

القتلة ، حاملو البنادق ، الأبالسة ، لوثوا المآذن والقباب وباحات المساجد بالأحذية ، والأسلحة ، واصطادوا الشبيبة بالرصاص مهدية ورفاقها .. أدركتُ في تلك اللحظة بأن الدفاع عن الوطن لا يقتصر على الرجال وحدهم .

-١٣-

شق على عقل الصبي أسئلة المجزرة ، لماذا تنسلخ الشرطة عن الشعب على هذا النحو الوبيل ؟!! ولأي سبب أنزلوا الفجيعة في البيوت الآمنة ؟!! على هضبة الدهدوانة وسوق الجديد

شهيدان :

- قيس الآلوسي .

- سليم الدرة .

وهنا في الفحامة ترقد مهدية ، بعد أن أحدثت أسلحة القتلة في رأسها حفرة غائرة بحجم القلب .

-١٤-

نحن الذين شهدنا الوقيعة .. استشعرنا خطر الموت يطاردنا ، انكفأنا عائدين إلى الطرقات الجانبية في ساحة السويدي(*) .. لذّنا بالجدران العالية ، وضعنا رؤوسنا بين أيدينا ، وبكينا .. عدنا مرة أخرى يدفعنا الفضول،ونحن ندرك بأن الموت قاب قوسين منا أو أدنى .

الآباء فزعون .. يبحثون عنا .. والأمهات حاملات الدفء والحياة في كل الأمكنة والأزمنة ، أرق المخلوقات استشعاراً للأخطار والأرزاء .. وجدناهن غائبات عن الوعي، .. بعد أن أدركن بأننا هناك عند جسر الفجيعة.

لم تفق أمي من غيبوبتها إلا بعد حين ولا تزال تردد بأن (هبطة الجسر) استلبت عافيتها منذ ذلك الزمان .

-١٥-

وقائع الوثبة ..

عندما أطل الصبي على مشهد الموت ، أدرك بأن الوطن يعادل الوجود كله من أجله نحيا وفي سبيله نموت ، وبهذا الوعي النضر العميق ، أنشدت مهدية نص الغد وعلى ذات المعاني سقط الفتية الشهداء سعد عز الدين الراوي وقيس الآلوسي وهادي عبد الجبار دفعوا حياتهم من اجل ازدهار الحياة والأوطان فالوعي مسؤولية يترجمها العقل التزاماً مسؤولاً ، ثم موقفاً واعياً ، عندها يصبح الموت القانون الأول لانتزاع حرية الوطن .

مكابدات : أحزان الموت

- ١ -

صورة فتى خضر إلياس الغريق لم تفارق ذاكرتي حتى اللحظة القائمة ، رغم تراكم السنين ، إيماءة الرحيل الأبدي ، اللحظة المتفجرة بالفجيعة والأرزاء العظيمة ، صوت الأم المذبوح ، يبكي وينوح ، يفت أكباد الشرائع والشواطئ ، تتسلق جدران الموت ، للفرار من الوجود إلى اللامرئي .

حاولت أن تلحق بالذي غاب وانطوى تحت المياه .

الأم مانحة الحياة ، صانعة الحب ، قد تتنازل عن وجودها كله ، تلج العدم باختيار محض واقدام شجاع لأجل أن يحيا الولد قرة العين .

– ٢ –

الحتمية الطبيعية ، تحدث حفرة موحشة في عقل الصبي ، ذات الحفرة الباردة التي سقط فيها قابيل ، لتبتلع منذ ذلك الزمن العتيق ، الكائنات كافة :

الشجر

الطير

الإنسان

الكل يرحل إلى نفس المكان ،

الغزالة ،

الفتى

وردة الجوري

نهضوا من التراب وإليه يؤبون .

لا مفر (كلا لا وزر) .

كل شيء زائل .

الفناء يصيب العشب ، العقل ، الناقة ، النهار .

انبثق الحزن في قلب الصبّي ، عندما كفت الحمامة البيضاء عن الحركة ، فاسترخت بين كفيه .

وأطل على قانون العائلة الكونية الواحدة عندما ارتحلت أخته الصغرى ، فأدرك القسمة المشتركة بين الكائنات.

الإنسان والحمامة .

هذا يرحل وتلك تموت .

كلاهما يذوي ويندثر ،

ويصير تراباً .

– ٣ –

لدى جدتي فاطمة ، وثوقية مبجلة إنها عين اليقين :

مشهورات بلا برهان .

لا تقبل التفاوض بأي حال .

القضاء والقدر .

نصيب مقرر سلفاً .

الحكم نافذ .
والتسليم بـــ (المقدور والمكتوب) إزاء قدرية فاطمة ، بدا العالم موحشاً ، حاملاً الموت ، الرزايا ، العدم .
يصعب على الصبي فهم الأسباب ، المواقيت ، ليس ثمة إلا الجلجلة في الصدر .

– ٤ –

الجهل بماذا السببية (الإنسانية والكونية معاً) ، حيال النتيجة الحتمية لكل موجودات الطبيعة ، جعل الصبي يبكي على فاطمة العجوز لأن الموت قادم إليها ، فقد علقت نازلة الرحيل بـــ (الهرم) وظل لزمن طويل يرقب جدته ، لأن من يفارق الدنيا لابد أن يكون عجوزاً ، واهن العظم ، بلغ من العمر عتيا ، رجلاً أم امرأة .

– ٥ –

في البدء   الذهول ..الدهشة
يتلوهما : الإحساس المرير بالصدمة حيال النهاية الفاجعة .
واقعة عصية التفسير تتجاوز وظيفة الحواس الضيقة الخمس .
.. في نحو الرابعة من عمري ، وعلى مقربة من دار الشيخ عبد الله الخضير ، راعني صراخ وعويل مجروحيّن . اقتربت من النائحات :
رأيت نسوة حاسرات الرأس ، يشددن شعورهن ، ويلطمن صدورهن ، وامرأة شقت الثوب جزعاً .
دلفت حوشاً رطباً ضيقاً معتماً ، رأيت امرأة مسجاة فوق تخت ، معروقة اليدين ، ووجهاً جافاً شديد الاصفرار .
إنها المرة الأولى التي أرى فيها الموت !
بعد حين أودعوا الجسد الضامر صندوقاً خشبياً حملّه الرجال وبأثرهم تسير النائحات ، ويشتد العويل وتمتلئ العيون بالخوف والبكاء ، يتهاوى الموكب في الطرقات المفضية إلى آخرة الدنيا (الشيخ معروف) حيث ينعم الموتى هناك بالراحة الدائمة ، والسلام الأبدي .

– ٦ –

مرارة موجعة في الروح ، أحس بها الصبيّ ، عندما جرّب لأول مرة عذاب الفراق ، وأدرك بأن الذي يتخطفه الردى ، لن يعود إلى الدربونة مرة أخرى ... وهذا هو (السّر) في حزن الأمهات !

.. فقد ارتحل حمزة العكلة ليلة زفافه ، بعد أن سقط صريعاً في مقهى (أبو ماشة)، حاول فضّ نزاع بين طرفين ، فعاجله أحدهم بضربة (قامة) نفذت في صدره ، فهوى صريعاً ، وظل جرحه الغائر ينزف حتى فارق الحياة .
انتظمت (زنكو) وجموع الفحامة في موكب مهيب .

قالت الأمهات :
.. كان فتى وديعاً ، جميلاً وشجاعاً ، تختلط الأصوات ، الكلمات ، الهلاهل . والطبول .
وصديقة الأخت الكبرى تلطم خدّيها ، تلقي فوق نعش أخيها الشكرات .. تصرخ جزعة وتناديه :
- حمزة .. حمزة : يا بعد روحي وين النيّة يا خويّه ؟!!
.. وتوالتْ أيامُ الصمتِ فارغةً تُنْبِتُ أحزاناً أشجاناً وبكاءْ .
ابتلع النهرُ فتياناً في عمرِ الورد
وعلى جسر الشهداء
قتل الجندُ الكرخيةَ مهديةْ
وهوّى في ميدانِ الدم
قيسُ الآلوسي وسليمُ الدرة .

- ٧ -

.. وحلّ موت الفتى زهير سبع ، الشبيه بالمآسي الإغريقية الذي أحدث في وجدان الفحامة حزناً عظيماً .
كان يعالج أسلاك المروّحة في ليلة صيف قائضة ، عشية الاحتفال بتخرجه في كلية الحقوق ، فصعقه التيار الكهربائي وأرداه ميتاً في الحال .
هكذا هوى الفتى زهير صريعاً بين صحبه وأهله وبين الأنوار والأنغام .
فتحولت الأفراح إلى مآتم .. لم يبق أحد من أهل المحلة والأطراف الأخرى إلا وبكى حزناً عليه .
الأمُ الثكلى انفجرتْ بصراخ ملتاع متتالْ .
ومضى الليلُ والصوتُ المذبوحُ كما الجرح الفاغرْ .
وعند انقضاء الفجر ، انقطع النحيب ، وتوقف النوْح .
ران على الفحامة صمت موجع قاس ، سرعان ما تحول إلى نشيج وبكاء ونواح ، فقد لحقت الأم بولدها مع أول شعاع للشمس في ذلك الصباح الحزين .

خرج الاثنان معاً إلى مقبرة الشيخ معروف ، فقد أبت الأم إلا أن تصحب ابنها، ولا تدعه وحيداً هناك . فآثرت أن تؤنس وحدته في عالم السفر الأخير .

- ٨ -

وارتحلت ممتازة ،
وإرتحلت أختي الصغرى دون نواح
إلا أميّ كانت تبكي في ظلمات الليل
وتكفكف فتحية عن عينها الدمع
وأبي يتجمل بالصبر والصلوات .

- ٩ -

ودعنا أحباباً ..
ومشينا خلف الموتى
هكذا توالت مواكب الرحيل متعاقبة واحداً إثر واحد
فيرحل الحاج مشمش في فجر الجمعة ، وينطفئ قلب بريسم في رابعة النهار وهو يكابد الآلام
ويموت الفتى العنيد صبري ، بعد أن أخفق في مغالبة الحرب التي أنشبها المرض الوبيل في جسده ، فأسقطه في الجولة الأولى ، فأحال كتلة الفولاذ الصلبة إلى كومة من عظام مفككة .
فشق على المحارب الشجاع الحركة ، وعزّ عليه الكلام ، بعد أن اقتنص عافيته الداء اللعين .
هكذا غاب الصوت النحاسي ، الذي كان يتقدم رفقته في ميدان (الكسار) في الجبهة الأمامية ، هازجاً :
"إحنا الفحامة الدحامة ..."
وهو لم يتخط السادسة عشرة من عمره .
وتشتد بزنكوّ الأرزاء ..
ويمتص الحزن رحيق الأيام الحلوة ، حين هوى مزهو جميل شهيداً في الشتاء وهو يضم إلى قلبه وردة برتقال ، وكتاباً ينزف دماً تضوع من أوراقه رائحة الفردوس . بعد أن ظل متفانياً في حلمه بغد (الوحدة العربية) ،
ويرحل (فليفل السبتي) ، صانع مسرات الدربونة ، الكائن العجيب الذي كان يراقص الهواء ، ويضحك الحزين ، ويجعل الجدران الصمّ تتمايل طرباً .
تستعيد الذاكرة الوجه الأبنوسي ذا النفس التواقة للبهجة ، المسكون بالفرح الفطري.
ولم يك الظرف والمرح والطرائف أخر مواهبه ، فقد زودته الطبيعة بمهارات بالغة البراعة والاتقان ، غير الألعاب البهلوانية وتسلق الجدران والتقلب في الفضاء .. إذ كان لوحده يشكل فريقاً موسيقياً ، عازفاً ومايسترو معاً ، فيصدر بصوته الرخيم لحناً مؤثراً ..

يعلو حيناً وينخفض حيناً آخر . طبقاً لدواعي اللحن شجياً حزيناً ، أم مرحاً راقصاً . عندئذ لا يسع زنكو إلا أن تصفق له بحرارة إعجاباً بأدائه الرائع .

ويجيد فليفل ألوان الغناء حاذقاً في فن الطرب ، يعزف الناي وينقر الطبلة ، ويقرع الطبل . ويتقن التمثيل ويجيد محاكاة الأصوات والحركات واستنساخ بعض الشخصيات المعروفة في زماننا ، ظل صوته الدافيء ، ونغمات نايه الحزين يدوران زمناً في قلوبنا ..

لم يكن أحد يعلم أو يعرف أوجاع فليفل التي لم يفصح عنها يوماً ..

لم يكن يعرف أحد من أهل الدربونة بمعاناته وهو يطوف بيننا راقصاً أو عازفاً ، ومغنياً موالاّته العذبة ، بأن صدره يتآكل مع كل نغمة وإيقاع ، إلى أن حانت لحظة النهاية .

عندما دارت به الأرض أو دار بها ، فهوى صريعاً .

كان المشهد الأخير كما التراجيكوميديا اختلطت الملهاة بالمأساة .

فقد قضى الفتى الموهوب صانع اللحظات الجميلة ، وهو يواجه الموت بطريقة ساخرة .

فآثر أن يودع الحياة بمرحه المعهود فأغمض عينيه إلى الأبد ووجهه يمتلئ بالضحك .

الأسئلة الأولى

-١-

الخبرية لدى الصبي في البدء قبل العقل ، يلتقط بذاكرته البصرية وبالحواس الأخرى ، العالم (الميدان الخارجي) للطبيعة ، يتآلف لاحقاً (الحس والعقل) يتحدان معاً ، يفضيان إلى وحدة تكوينية ، هكذا وجد الصبي نفسه خبرياً في البدء ، كما النملة يجمع ما يجده في طريقه من الخبرات والإشارات والمشاعر .

الطبيعة الحرة توأم البراءة ، والصدق التلقائي يجعل حياة الطفولة خلوداً مستديماً ، الركض كما الخيول في الأزقة والطرقات ،

حكايات الليالي

مغامرة ريادة أقاصي (الجول) ، محاولات اكتشاف المديات المجهولة ما وراء (الجادة) والجسر العتيق .

اختيارات مفتوحة على الشط ، الكسار ، امتطاء الخيل الكسولة ،

الانغمار في هوسات (الجوبي) ..

والعدّو وراء النياق والأباعر :

"بعيرة نامي نامي ... جاچ محمد حرامي.." .

نداءات تملأ فضاءات الروح ..

" مكاوية ، چق چه قدر ، علوچة ، عنجور ، علعوده ، چعب الغزال " .

-٢-

عندما نقف حيارى إزاء لغز من ألغاز الطبيعة أو حين يؤرقنا سر من أسرارها يستفيق السؤال المعذب في صدورنا .

فنلوذ بالعارفين من أهلنا حاملي الحكمة البالغة ، نلتمس الجواب الشافي ، الذي يخرجنا من كهف المجهولات الغامضة الى صفحة البينات ، يحررنا من مأزق السؤال .

فينطق الحكماء (الجدات والأجداد) ، بيقين ما روى من (أخبار) وما تداوله الناس من منقولات فترتد الأسئلة ، حسيرة مثقلة بوجع الغموض والإبهام .

-٣-

أسئلة السنوات العشر الأولى من عمر الطفولة قد تكون أولية ، ساذجة ولكنها عنيدة ، مقدامة ، تنزل إلى المياه العميقة ، بحثاً عن كونية أخرى تكون أكثر حكمة وأقل غموضاً من الكونية القائمة التي تطوق عقولنا الغضة بغابة من المجهولات والألغاز .

ولأن الطفولة صاحبة خيال طليق مولعة بفضاءات لا حدود لها وفي حوزتها زماناً ومكاناً ذاتيّين مفارقين للميكانيكا التقليدية .. فإنها تشعر بأن حريتها بلا حدود تتجاوز حتميات الطبيعة وقوانينها الفظة المتعسفة .

ولأنها تعتقد بان لا شئ يعيق إرادتها فإنها قادرة أيضا أن تصمم عالمها السعيد المنفلت من وطأة الرتابة والتكررات المملّة ، الذي بوسعه أن ينفي عنه وعن مشهده الجميل ، الرماد ، واليباب والذبول .

لتنشئ باختيارها المحض ، معرفة خاصة بها ،

-٤-

تورق في الوجدان جدلية عاصفة بين النقائض والأضداد :

الخير والشر ،

الجمال والقبح

النور والظلمة

الجنة والنار

ترى من يظفر بالغبطة الأخروية ، ويفوز بجنات الماوى ؟ !

ومن هو تعيس الحظ الذي يتبوأ مقعده من النار ؟! لماذا يولد ويحيا الإنسان ؟!

ليشقى ؟!

وهل من غاية معلّلة لضروب العناء مادام الموت يترصدنا ؟!

فقد رأينا كيف أنشب الموت قبضته وهويستلب حياة صبري وبريسم وأختي ؟!!

هل من فرصة ما ، للإفلات من قبضة الردى ؟!

مُذ اختطف (الشط) الفتى عند ضفاف خضر اليأس أدرك الصبي أن الموت ملاقيه ، آتٍ إليه حتماً ، الآن أو بعد حين .

سيتخطفنا واحداً تلو واحد وسيدق علينا الأبواب يوماً ما ، التأملات ، اللحظات الهاربة ، العناء اللامتناهي ، الأحلام الصغيرة ، فيوضات وفيرة في كتاب الطبيعة الأولى ، أو (خلود الطفولة) فالعقل لا يبدد انشغاله بـــ (الكيف)

حيال جدليات الفكر :

- التصور - التصديق

- الوهم - الحقيقة

- الخيال - الواقع

- الشك - اليقين

سألت أمي يوماً وهي تهمُّ إيقاد التنور : لم لا نرى الله .. ونحن نرقب السماء ؟!

أجابت مليكة الحمادي :

.. أنه وحده الذي يرانا ، وليس بوسع أحد من البشر ان يحيط به لأن العين لا تتسع لوجوده !

قلت : كيف

عندها اهتاج العم عبد الجبار وصاح بأعلى صوته : اسكت وكفّ عن الكلام ؟!!

الإيمان عند عمي كما لدى (هوبز) وجدتي (فاطمة) يشبه أقراص الصيدلي يجب ابتلاعها على الفور ، دون تفتيتها بالأسنان .

.. وقد ادركت بعد مرور خمسين عاماً على تاريخ السؤال ، بأن الاعتمادات الفلسفية لم تقدم تعليلاً – للرؤية – يختلف كثيراً (في مبناه ومعناه) عن الجواب التلقائي الذي صدر عن أمي التي لم تكن تحسن القراءة أو الكتابة .

-٦-

ما يعرفه الصبي هو ذاته والسؤال في وجود (الأنا) هو برهانها " إذا كنت اخطئ فأنا إنسان . فالسؤال هو الرغبة في مقاومة الجهل .

ليلة الرحـــيل

-١-

عندما أَذن زمن الرحيل ، ومفارقة الصحبة والديار والأتراب ، أدرك الصبيّ فجيعة (الذات) ، حيال فعل قاهر آت بقوة فوقية عاتية لا راد لأمرها ، أقتلع منها جماليات الزمان والمكان ، وأسقط حرية الاختيار .

قرار الرحيل عن الدار الأولي وعن قمر الكرخ ، والإنتقال المترامي إلي كوكب (الرصافة) ، إنتزع الوجود من ماهيته ، فبدا العالم محض فراغ موحش ، بعد أن إستلب هوية الصبي ،التي لم يبق منها إلا ظلاً واهناً .

لم يعد القلب وهو يطوف بأرجاء زنكو قادراً علي إلتقاط المعني ، إلا ذكري تلك الليلة الشتائية العاصفة، المفعمة بأحزان الفراق وبكاء الأمهات ، وفجيعة الوداع .

هل من معادل نفس بديل للدار وندي البراءة ، وسنوات الطفولة والصبا ؟

بدت المسافة الفراغية هائلة الأتساع بين الكرخ و الرصافة يستحيل علي عقل الصبي إختزال حقائق الأشياء بمجرد عبور جسر الشهداء إلي ضفة النهر الأخرى .

فالصبي لم يأبه يوماً بعالم الكم ولم تشغله بديهيات فيزياء المسافة والزمن ، فلم يكن الرحيل في ذاكراته محض خط هندسي بين نقطتين متقاربين .

بل يعني في منطق اللحظة الموجعة كما السفر الأخير ، مفارقة تامة وإلي الأبد للفردوس المقيم في (زنكو) ، بوصفه إستلاباً جبرياً لعالم الصبي الذي ولد وعاش في ظله . لذلك شق عليه التنازل المفاجئ عن جماليات الروح ، مقابل وعد بسعة الدار البديلة ورحابة حجراتها .

-٢-

الانتقال القاهر بين (الصوبين) ظلت في ذاكرة الصبي التجربة الأشد إيلاماً في نفسه . فطفق البحث في سنوات حياته اللاحقة عن جذور القدريات المتوهمة ، في محاولة للاقتراب من الدوافع والأسباب للأفلات من قبضة التبريرات الغيبية، والدعاوى الهزيلة التي تأنس سيكولوجيا إلي التشبث بالذرائع (المتعالية) ، فتعلق الكثير من هزائمها و خيباتها علي شماعة الأقدار .

-٣-

لم يتح للصبي الكرخي فرصة التمرد أو الاحتجاج ، أو منازلةالجبرية العائلية ، الا أن يلوذ بالصمت على مضض.

منذ تلك الليلة الشتائية العاصفة في عام (١٩٥١) ، أصبح معني (الرحيل) إستلاباً ، و(الوداع) فجيعة ، و تحولت مفارقة الديار والأصدقاء الى معضلة وجودية من الصعب تفسير مشاقها النفسية .

لذلك لم يجد الصبيّ الكرخي الذي اجتاز بوابة العقد السادس الا تأويلا فلسفياً (متراخياً) لماهية علتها الموجعة.

ذلك أن انتزاع الطفولة واقتلاع منازل الحنين التي ولدّ وعاش في عوالمها البهية يعدّ فعلاً فوقياً نازلا بالقوة، لاطاقة للصبيّ في ردّة او مقاومته، والذي أدى الى تفكيك البناء النفسي ، وتداعيات (الذات) ،وكادت تصل في تلك اللحظة الى الهاوية، بعد ان أستلبّت (كينونتها) فيصبح الفقدان علي هذا النحو المريع ، قهراً لإرادة الكائن وإلغاء لحريته ، و تجاوزاً علي دورة الحياة ذاتها ، تحت وطأة الجبرية العائلية .

-٤-

هل ثمة مقاومة ، أو إختيار للرفض ، أم أن (الرغبة) ، أمر حتم ؟!

فلا مقاومة تنفع ، ولا إختيار يحول دون إستبدال الواقع .. وليس الرفض إلا عناداً طفولياً ..

ويبقي الصبي يقاوم حنين الطرقات ، ورائحة الليل ، ونشيج الأزقة ، ودفء (زنكو) .. و رحيق الرفقة ، ومرابع العمر الجميل .

ويكاد رأسي الصغير ينفجر عناء !

لم يُشقينا الزمن ؟! فيعذبنا ويبكينا ؟! حتى تشق علينا الرحلة ؟!

ويستحيل القبول ؟!

يئن قلبي تحت وطأة الأسئلة ؟! لماذا ؟! كيف ؟! و إلي أين ؟! لِمَ ينخذلُ علي هذا النحوِ القاسي ؟.

فأنزل عن حريتي ؟!

و عن رفقتي ، أترابي ، أحبابي ،

لعبي و موجوداتي ؟!

لِمَ يغادر الصبيُّ بيتاً ولُد ونشأ في رحابه ؟!

تلك اللحظة (العُمر) الغارقةُ بالمطر والشجن والدمع ،

لحظة فاجَأنا أبي ان نحمل متاعنا في الحال إلي عربة (اللوري) ، إرتحالاً إلي بيت آخر ، يقع في أقصي الكون ، في كوكب (الرصافة) البعيد !

لم تغب عن ذاكرتي تفاصيلُ اللحظة ، أو تنأي جُزَئياتها حتى الآن ..بعد ان احتشد قلبي بمرئيات الرحيل و عذاب الفراق ، وكيف أن مشهد الوداع في تلك الليلة الشتائية القصية

والحاضرة معاً ، تحول إلي موكب من الأحزان المهيبة كما لو أن (الفحامة) ، تُشيع إنساناً عزيزاً عليها .

في ذلك المساء المفعم بالشجن الإنساني العميق ، كنت ضائعاً و حزيناً ، وكأني أتخلي عن وجودي كلّه في المرابع العذبة .

ولئن تنّقلنا بين الأزمنة والأمكنة ، فأني لم أجد مقاماً هنيّاً ، إلا في (الكرخ) ، ذلك (الصوبْ) الذي اختطف قلبي ، حباً آسراً ، وشوقاً مستديماً .

و أن الكلمة ، واللوحة ، والفكرة ، هي كل ما أملك إهداءه إلي منازلِ الضوءِ الحانية ..

ولعل مثُل زنكو وتقاليدها الراسخة:. الوداعة، البساطة ، المودة ، السماحة ، المحبة للناس جميعاً ، تشكل جزءاً من نظرتي للعالم و رؤيتي :

للعقل والحرية والإنسان !

فقد زودَّتني خبرة المكان الفسيح ، الذي يبدأ بـــ (الخاص) و يرتقي إلي (العام) .. من (الدربونة) المفتوحة علي أفق (الفحامة) .. (الكرخ) .. إلي الوطن كُلّه ..

زودتني هذه الخبرة بفضيلة الإتساع ، والامتداد ، عبر حركة العقل إلي العالم أو (الكون الإنساني) ، دونما فواصل وبلا قيود أو محددات مسبقة .

حيث حرية الإنسان : الفكرة ، الحلم ، الفعل .

و أن وطأة (الجُزئيَّات) الذميمة ، لم تحجب رؤيتي المتفائلة للحياة ،

فجماليتها المتألقة بالخير العام والحرية الإنسانية ، تفوق الصفات الهابطة

و ان العقل المستنير قادر علي إزاحتها وتخطّيها ، ليس علي الطريقة الفردوسية ، أو عَبْر تفاؤلية (مباشرة) .. بل عبر مبدأ التكافؤ ، والذي يقضي بأن لكلّ عقل مقامَهُ في تشكيل منهجه و إختيار فكريَّاته ومواقفه وحقه في الدفاع عن آرائه ، عبر حوار تتشكل فيه (النحن) ، منهجاً لإنتصار الحياة و ازدهار الوطن ..

فلا أنا من غير الآخر ، وان الاختلاف في الرؤى والأفكار إحدى فضائل المعرفة ووسيلة للظفر بالحقيقة مهما تعددت الألوان وتباينت الطرق حتى يأتي الطرفان إلي كلمة سواء ، ولاء للمنهج العلمي في المناظرة والبحث ، وإنشاء النتائج .. وبهذا المنطق الموضوعي ، القى الجاحظ الفيلسوف المعتزلي موعظة العقل:

" إن المختلفين كلاهما علي صواب " .

ومن شان هذا المنهج أن يمنح (الفكر) نضارتَهُ المتجددة .. فتطفئُ الشرَّ الذميم ، وتنهض بالإنسان إلي مقام الحرية ، ومن بين استقصاء العقل و حركته المثابرة ، تتسع دائرة الخيارات وتمتد رقعةُ الضوء .. فتتعدد الرؤى ، وتتنوع المشاهد ..و تتوالي القراءات المبدعة للحياة والمستقبل .. عندها نشيِّدُ عمارة الواقع ، وعقلانية الحاضر ، صوب الغد الآتي .

وعلّمتنا (زنكو) : بأن الحرية كما الضوء للعين وبغيره تنعدم الرؤية ويكف الابصار، وان أول معيار للحرية هو العقل الملتزم الذي يدرك صاحبه انه جزء من كل وليس جزيرة عائمة لوحدها، وعليه طبقا لذلك ان يتحمل مسؤولية اختياراته امام نفسه وتجاه الاخرين .
فالواحد جزءً متممٌ للـــ (نحن) ، متصلٌ بها ، وليس طرفاً منفصلاً عنها ..

-٥-

- يمتلئ كتاب الشيخ بتواريخ شجن الازمنة المضنيِّ مذ عبر في اخرة الليل جسرالشهداء ، وعلى ضفة النهر بكى. أصبح (الوداع) ، أي وداع من أعظم أحزان فأصبح الرحيل عن الديار ومفارقة الاصحاب والاتراب من اعظم احزان الدنيا.
رفقاً بقلبي أيها الأصدقاء فالجمجمة أثقلها وجع الغربة بعد ان نأت بنا طرقات العالم الموحشة وتناثرنا في مدن التيه الباردة القلب وهأنذا أصغي لانين الروح الهائمة بين المنفى والذكرى.
- فالكونُ الكرخيُّ ذو الشمائل الجميلة .. يظَلّ حاضراً في الذاكرة والقلب عَرفَنا في ظلّه هناك :
- الحقائقَ الانسانية الأولى مبسوطة في الدربونة كما في المحلة :الناس متآزرون فيها بينهم فلا مكان لاثرة أو أنانية (لاانا من غير الاخر) الا من اختار أن يعزل نفسه عن الحياة بعيدا فالاصل هو(النحن):الضمير العام الذي يبسط كلمته في المحلة وأطرافها فله وحده القول الفصل.عبر هذه الحميمية الدافئة نهضت قيمّ الازدهار الاجتماعي في الفحامة كما في محلات بغداد العريقة.
ولأنَّ الحزنَ الإنساني هو أرقى معطيات العقل ، وأجلها صدقا وحضورا، فإن عذاب الغياب، وآلامَ الرحيل ، وأحزان الوداع ، هي اللوحةُ الفطريةُ الصادقة التي تنبثق من جذورها الغائرة .،
لذلك فأن اعلاء دور العقل في الاختيار بمنأى عن الحتميّات الساذجة أو الإنتهاك المتعالي للإرادة الإنسانية من شأنه فقط ان يسترد الحرية الغائبة.

الاسئلة المعــذبة

-١-

ماذا يجري الآن ؟!

ماذا يجري في هذي الدنيا ،؟!

حتى ينأى الإنسان عن داره ؟!

عن رفقة عمره ؟

يسقط في التيه وحيدا .. يصبح مغترباً في هذا العالم ، يتخلى عن حريته ، موجوداته ، صحبته ، أترابه ؟!

عن بيت ولّد فيه .

ماذا يحدث في دربونة (زنكو) ؟!

ماذا يجري يا أبتي الآن ؟! .. حتى يأخذنا في هذا الزمن التيه ؟

ينسينا فرح السنوات الأولى .

نعدو في طرقات لا نعرفها قبل الآن !

يا أبتي :

لم نرحل عن فردوس الكرخ ؟! ، ونفارق هذي الأرضَ ، القمرَ ، النهرَ ، الدار الأولى ؟!

لم نرحل يا أبتي في زمن المطر ، البرد ؟!

لم نرحل في هذا الليل المرّ الموحش ؟!

أسألك الله يا أبتي .. أن توقف هذي المأساة الآن .

-٢-

شجن يعتصرُ الكونَ يزلزل أرجاءَ الفحامة بيتاً بيتاً ، ينتفض القلبُ جزعاً ، ويفيض دمع العَين سخياَ ، الغصة في حلقي تخنقني .. وتضيق علينا الفحامة ، فالحزن عظيّم ، يتعدى الألفاظ ، الكلمات .

حتى اللغة عاجزة عن وصف الآلام ، ونشيج الجدران .

يا طير الفختي خذني فوق جناحك ، وأنأ في جزر أخرى ، لا تعرف أسفاراً ووداعا..

-٣-

تنثال أسئلة الحزن كما الجرح الغائر، سؤالاً بسؤال ، عما يجري من صخب حول قمر الكرخ ؟!

أَركض كالتائه في الدربونة يملؤنيّ شجن الترحال ..

هل أزف الوقت وحان الوعدْ ؟!

أم تأتي الأقدار بمعجزة في هذي الساعةَ ، توقفُ هذا المشهدْ؟!
ليعود إلينا زمنُ الفرح الأولْ !
هأنذا أحمل أيامي ، وألملم أمتعتي ، مأثورات الليل ،
وحديث الصبية عن أشباح الليل في (الطمة)
أرقى سطح الدار ، أبحث عن شيءٍ ما ، عن ذاتي ؟!
أم عن نجمات الليل السبع ؟!.
أم عن قمر العمر .. قمر الكرخ .
أكلت يا أبتي (الحوتة) قمر الكرخ .

-٤-

برقُ .. برقُ ..يعقبه رعد ..ريح زلزلة تعصف أطراف الفحامة فتصطفق الابواب ويفرّ الطير فزعا..
يتشضى الليل فيزخّ مطرا بلّون الكحل..
تتداعي صور اللحظات الباذخة الغبطهْ ،
توقظ ذاكرتي : أيام الصيف . الشطّ ، خضر الياس ،
أتصاب الرمل ، (روجات) النهر . (الكيش) الحلاوى ،
صور أخرى : (الملاَ) ، (عمّ) ، (الترتيل) ، السدرة ..
لحظات السمرّ الليليّ ، وحكايا جدتنا العذبه.
صبحي ، يحيي ، أختاي ، سعد ، وأنا..
تأخذنا فاطمة صوب ضفاف النهر العالي والزمن النائي ،
و تجول آماد الليل بنا .. و تطوف بحكايتها الدنيا .
بريّات موحشة في قلب الصحراء .. نلج الكهف الغائر في جبل (الجنّ) .. و بيت الشعر ، وخباء البدو الفقراء
و نجوس رفقة جدتنا البريةَ و نشم نسيم الورد الآتي
من حمص و حماة، وبلاد الشام .

-٥-

وأطلّ برأس في بئر الدار الغائرة الظلماءْ ،
فيجيء صوت المرحومة فطومة ..
" .. من يدري ؟!
قد يأتي الملك الصالح هذي اللحظه.." ؟!
و قبالة تنور (الخبز) المطفأ، كوّمُ رمادْ .

وهنا في هذي البقعة ، كان الرجل الكهل (بريسم) ،
يتوضأ في الاوقات الخمس، ويصلي فرض الفجر
أَمضى في الدار سنين، ضيفاً معنا ،
يُسْمِعنا :
تاريخ الكرخ وحكايا الماضين الموتى
ويحدثنا في الليل عن مخلوقات النهر وجنيّات الشطّ ،
يروي أيام صباه الأولى في (الدربونة)
إذْ كانت (زنكو) في البدء بيتاً واحد.
تجذبني (الرازونه) :
أفقاً مفتوح العين علي (حوش) الدار ، إذْ كانت أم جميل المشمش ،حمدة المحنه.
تُلقي عبر (الكوة) حبات الزعرور و المصقول ،و الشكرات .

-٦-

يرنو الصبية قمر الكرخ ، عمود النور (التيل) العالي ، وزهير الحفصه يبكي و يتمتم ..
فتضيع الجمل الأولى ، وتنوء بالحزن الكلمات .
يسألني : "هل ثمة عود آخر ؟! أم ان الرحلة عبر الجسر تطوينا ،خلف الدنيا ؟!
الدرب طويل .. والنهر عميق!
ويجئ فتى الفحامة مزهر ، يهمس في أذني :
" هل يؤينا زمن آت ، أم أن البيت قصييّ ، والدرب بعيد ؟؟
هو ذا رشودي ، أرقبه ينأى ، يتلاشى في قعرالدار ويذوب .

-٧-

لِمَ ؟! كيف ؟! أو أين ؟! ولماذا ؟!
أسئلة الكرخيّ الحائرة الكبرى .
توقظ عصر اللحظه .
تحمل أحزان الدنيا ،
تحت زخات المطر الليليّ ، ترقى أسراب الطير شرفات الدربونة ،
تشدو ، تنتحب ، تخفق في قلبي .
و أعود أسأل أمي وأبي .
لم يحدث يا أميَ هذا ؟! ماذا يجري في الكون الآن .
وهم أم حلم ، أم ماذا ؟!
الكان والكائن ،الماضي والحاضر ، الثابت والمتحول .

تختلط الصيرورة بالديمومه.
هو ذا زمن (الآن) !
يتعيّن أن أنسى أيامي ، أحلامي ، الصحبةَ ، الملاَ ، مدرسة الزوراء،بيض(اللكلك) الشطَّ ،الرمل،(نعيج الميّ)،مرح العيد،(الجوبي) ، (الختيلة) ، (الكمرية) ، وحكايات الليل ْ .
يلتفّ الصبية من حولي ، مزهر ، عبد الله ، إبراهيم ، زهير ، رشيد ، صبري ، خطاب، رياض الكركة ، انعيم ، نوري شفيق ، صلاح ، وربيع..
أذن وقت وداع الرفقة والكون الكرخي إذن ، وحل الوعدُ وحان الترحال .

-٨-

يتلفت قلب الصبّ الموجوع يملأ عينيه بآخرة المرئيات ، فيعانق باب الدار، ويقبلّ جدران الدار ، ويشم رائحة الأرض.
و دلفت إلي حجرتنا الفارغة الصماء ،..
و بكيت في الزاوية اليسرى . ذكرى نصّ فاطمة حول(منقلة) النار في ليل البرد الماطر بـــ (الحالوب) .
– وادور كالدرويش الهائم في حال الوجد ..
أتلمس بيدي (حبّ الماء) ، وندى (الناقوط) ، و طابوق الحوش (الفرشي) ،..
ثمة أرقى السطح ، كانت أمي هنا تضع (تنكة) ماء، وعلى السور الحجريّ(الركّيه) ..
شيف الركي البارد ، والماء (البيّوتي) الجلاّب .
يا ليل الصيف وداعا ..

-٩-

هي ذي حفصة (أم مجيد) ،.. تأخذني بين ذراعيها الحانيتين ، تملأ وجهي بالدمع والقبلات .
و زكية الكردية مرضعتي أمي توصيني ألا أنساها ..
و صديقة تقرأ (وِرْدَ) السفر الميمون .
وتلّملّم أمي أطراف عباءتها ، لا تقوي حمل الأحزان وبكاء التوديع و بصوت مجروح تخنقه العبرات ، قالت :
" هذي الدار دنيانا ، مرفأنا العذب الآمن .
عتبتها نهر تجري فيه الخيرات "!
هي ذي زنكوّ تغرق في الاحزان....وعبرنا في اعلى الليل جسر الشهداء.....

أطلال الفـــردوس

الصبيٌّ الكرخي الضارب في بقاع الأرض ، أَوهن خطواته الترحال ، عاد في أخرة القرن العشرين شيخاً ، باحثاً عن رحيق الطفولة الأولى بين حنايا الأزقة و الطرقات ، وعند ناصية مقهى (عريبي) ، اكتشف هول المسافة الفراغية الموحشة بين (مثُل) الدربونة ، وبين واقعية الإسمنت ، التي ينهض في قلبها وفوق ارضها جبل الأسمنت الأبيض ، الدور العشر في (زنكوّ) ، ترقد تحت عمارة باسطة قوائمها الصلبة في قلب الدربونة.
عندها أدرك الشيخ الكرخي قانون الضيرورة بوصفه حتمية ، تقضي ضرورتها الفظة ، تغيير مشاهد المكان والزمان ، وتحوّل اليقينات الراسخة الى ممكنات بالغة النسبية .
ازاء ذلك لم يعد ثمة من شئ قابل للمقاومة إلا الذكرى .

-١-

نزّلَ الشيخ الكرخ ليلة عيدِ الأضحى ،
يسأل أهل الذكر عن حال الدنيا ،
عن أيام الصبية في دربونة (زنكوْ) ؟!.
فأجاب حكماء الفحامهْ :
الدنيا غير الدنيا ،
فالجنةُ الوارفةُ الظل والخيرات ،
صارتْ في أخرة القرن العشرين أسواقا ، ومقاصف ، ودكاكينْ .
مدرسةُ الزوراء في أعلى الهضبهْ .
آلّتْ خَرِبَهْ
و الحصانةُ فّرتْ منها الخيلْ ،
قمرُ الكرخ توارى خلف الآماد المجهولة ونأى ،
وانطفأ قنديل النور في شباك (الملاَ) ،
والأبواب المشرعة للضيف الآتي ليلا ،
صارت إعلانات للألعاب العاجلة المبتذلّهُ
تعرض أوهام القوّهْ ،
و برابرة الغرب الأمريكي ،
و الفيديو (كلاب) ؟!!!

-٢-

أَين ولّتْ يا مولايَ الأنوارْ ؟!

(الحنيّةُ) ، الروحُ ، الحبُ ، الإيثارْ ؟!

أين إرتحلتْ دربونةُ زنكوّ ؟!،

و لِمَ الطيرُ هجر الدور العشر والشرفات ؟!

الصبية ذابوا في (الزحمةْ) !

ولّى زمنُ (الكمريهْ) ،...

وشايٌّ العصر ،

وخبزُ العباسْ .

-٢-

يمضي الشيخ الكرخيٌّ بين الإطلال الغابرة الأولى ، فتفيضُ في الروح الذكرى ليلة عيدْ .

هو ذا دكان حسين الفتحي (الحلاق) ، آلَ محلاً للخضروات .

أيام العم حسين و صاحبه الشيخ أبي (رنة)

عاش الاثنان معاً في زمن الدنيا ،.. لم يفترقا ، و أقام عند الموت في رأس التلّ الأحمر .

كان الرجل ودوداً ، عذب الكلمه ،

يأتيه الأولاد والصبية ليلة العيد .

-٣-

و تأملت و أنا ألقي خطوتيَّ في سوق الفحامه .

أيام كريم (الجوجه) ،

كان وديعاً ، يهوى (الطير) ، ويحب الخيلَ حباً جما ،

يحمل عند صلاة الفجر طبق الخبز ، ويدور بأطراف الفحامة الفلاحات فيدق الأبواب ، باباً ، بابا ..

ثمة ينتبذ ناصية في السوق ، يفترش الأرض يتثاءب تعبا..

ورأيت يوما (جوجة) يبكي جزعا ،..

إذْ سقطت من جيب دشداشته (عانات) الخبزْ .

أوجعه رحيلُ (الأم) و حزنُ الموتْ .

ضاقت في عينيه الدنيا ،.. آثر ان يطوي الاحزان بحب الخيل ، علّ فرساً تؤنس وحشته .

أو يسمع آهات الروح حصان ، إنطفأتْ في آخرة القرن العشرين أيام كريم الجوجهْ

إقتلع الداءُ الكبد المفعم بالأحزانْ .

وقضى آخر لحظات العمر بين الخيل لينام ،ثمة يرقد أبدا ..
مات صديق الخيل .
ما بين مقهى خالد الورّه ، ومقهى عريبي و بيوتات الفحامة وليالي البرد بين الإطلالْ ،
تأتي ذكرى كريم الجوجهْ ..
كان أميناً ، و وديعاً ، ومحباً للناس ،
يحمل طبق الخبز عند الفجر .
أو يتحدث في المقهى عن أنساب الخيل .

-٤-

و هنا . بيت (أبي السعد) ، تذكرة الروح ، محراب الوجع الإنساني ، و ملاذ المقهورين ، المهزومين ،البؤساءْ
الآتون إليه من كل فجٍ في مدن الأحزانْ .
يوقظ في قلب الإنسان أملاً بالإبراء و نيلّ الأوطار.

-٥-

ثمة نافذة ضوء أخرى : الملاَ جواد .
يأتيه الناسُ أفواجاً من أطراف الكرخ ، إمرآةُ بائسة تشكو هجران الزوج ،
أخرى تحلم بـــ (الحمل) الآتي ذكراً ،
و عجوز عاقر أتعبها (الصبرُ) و(السحرُ) ووصايا (الفوّالْ) .
سيدة في الخمسين تخضب باب الملاّ بالحناء..
تفتح كفيها بالنذر و الدعواتْ .
حملتني أميّ يوماً
وضع (الملاَ جواد) يده الواهنة فوق الصدغين .
تمتم بسم الله ،قرأ (الحمد) ، و(الفلق) ، و(الإخلاص)
يتوقف بين السورة والسورة... ،
يسألني :
" هل خفّتْ يا ولدي أوجاع الرأسْ " ؟!
فأجيب الملاَ بالنفيّْ ،
فيحوقل ، ثم يتمتم بسم الله (الشافي ، العافي) !
و يعود الملاّ يتلو سوّر : (الحمد) ، (الفلق) ، (الإخلاص) .

ثمة أَيام أخرى في ذاكرة الوجدان الكرخي ، في الطرف الغربي ، إذْ تنهض، دار السيدة الطيبة القلب ، الضامرة العود ، الخالة (تاضي) ، ذات الوجه الوضّاء الآتي من زمن (الرحمهْ) .

تنثال كلماتُ (أم ناجي عكاب) ، بالودّ والرفق و (الحنيّة) ،

و تخاطبنا : (هلاّ يمّة)،

تكتظ في طقس (المحيّة) رحبات الحوش الطينيّ بالفتية و الأولاد ،نبتاع منها : حشيات (البوتاز) ، و(زنابير) النارْ .

ومررت بالدار أسأل عن صاحبة الكلمه..... هلا يُمّه :

قال السعديُّ :

في ظلمات الغسق الليلي في تسعينات القرن الفائت ، هبتْ تاضي من غفوتها ، صارخة ، تلطم خديّها في فزع كالموت المجنون ،: تبحث عن قرة عينيها (ناجي)

قال الناس : لا نعلم شيئاً عن غيبة ناجي ، مُذْ صحب الخيل لبيروت في رحلة صيف، ..وسيأتي حتماً

مرّ الزمنُ ، وتوالت أيام ، فغار الجُرْحْ .

تنتظر تاضي الإبن الغائب في بوابات الصبحْ .

غابت الشمس في عينيها ،..

تحتضن (دشداشة)ناجي و تبكيه ..

ثمة مدّيهْ

تقطع كبد الأم أوصالاً .. فتحيل الجسدَ الضامر ظلا..

تطوي ظلمات الليل ، حائرة بين التوق والخوفْ .

ترفع كفيها تحت سماء الفحامة تدعو الله ، و تخاطب الريح ، الشمس ، الطير ،

تلقي بين الناس أسئلة الحزن : هل أحد يا أهل الأرض يعرف أين مضى إبنيّ ناجي ؟!

تمضي في الأسواق ، تصعد صوْب علاوي الحنطة ،

و تدور حول ضريح الشيخ معروف الكرخي ..

في الليل التالي تحتضن شباك (أبي عبد الله) ..

توقد في صحن (العباس) الشمع ، وتخضّب بالحناء جدران الباز الاشهبْ :

علّ الغائب يأتي ، أو ينبئ قلب الأم خبر أو مكتوبْ ..

أو خيط من نور يفتض سرَّ المجهولْ ،

أو يكشف لغز الغيّبهْ .

قال إبراهيم الزيدان :
لا أحدً في هذا الكون يعلمْ
أين مضى الزمنُ المرّ بالسيدة الضامرة العودْ،
أجاب الملا مولود : الحزن فتت كبد الأم التكلى
والأوصاب إستلبت الروح العذبهْ

-٧-

يتلظي قلبُ الدرويش بالسرّ الراقد في نار الوجدْ ،مجذوبا ، جذلاً، صوب جهات الهيّبة و الأنسْ .
ثم يدور رحيقاً حول مقام الورد .
يسأل (أوتاد) الفحامة عن واقعة البعد ؟!..
الخطوةُ في مملكة الروح تنأى ، صارت بددا ،
إذْ شاخت يامولايّ مقاصير الجنة ،
أضحتْ حطباً ورمادْ.
والدرويش العاشق يسعى ما بين الهيبة و الرغبةْ
يبحث في لوْح (الحرية) ، عن حكمة زنكوْ :
عن قانون الذات العليا الـــ (نحنُ) ، عن قمر العمر وسرّ (الاينْ).
و تدور بين (الإطلال) العينْ
ثمة مرآة الذكرى تجتذبّ بؤرتُها:
ضوء الصبحْ ،
هديل الطيرْ،
هلال العيدْ
ماء الورد وعطرالقداّحْ
و حجاب (الملاَ جوادْ)
يرتدّ بصر الدرويش و هو حسيرْ

-٨-

إرتحلت يا صحبي زنكوْ .. خلف الآماد و الأزمان ، وانطفأت أيام العمر الأولى .
ليس ثمة من صوتٍ في فردوس الكرخ الأعلى إلا صمت الأطلال :
فرّ الضوءُ ، القمرُ ، الطيرْ.
وطوّى الوقتُ الغاربُ غبطات الدربونهْ :
شايَ العصرْ ،

القنداعْ.
إبريق الآسْ ،
قمر الكرخ..
و مسامرة الليلْ .
هتفت الراوي :
" عبد الله ؟! الغربةُ تأكلنّي .
أسألك الله أن تأتي الآنْ .
الأصداءُ صاعقة ترتدّ حجراً في قاع القلبْ ."
قال: (الذي رأى) :
" إرتحلّ يا مولايّ الصبيهْ ،
و لّجوا الليل وغابوا

-٩-

يرتقب العاشقُ أن يوقظ (صوب) الكرخ بين الاطلال شمساً أخرى ،كيما نمضي والصبية للملاّ.
تصحبنا في مسرانا أدعيّة الدربونة..
نجتاز طرف (الحصانة) ،، تجذبنا أشواق (الشط) نرّد النهرَ ، نوقد في الماءِ شموع النذرْ ..
يا مولايّ :
طال الهجر أمدا ، لازلنا نرنو للآتي من أيام الغدْ .
يشقينا في هذا العصر حال التوق و معراج (القُرْبْ)

-١٠-

يثبُّ قمرُ الكرخ فرحاً فوق قباب الشيخ معروف الكرخيّ.. طيراً من ورق الحناء و حرير القلب . وماء العين و يطلّ عبر النافذة الزرقاءْ الآتون صفوفاً من قارعة الصمت الأبدي فيشيع الدفءُ العذبُ في الأرجاءْ .
و يجوس الفتيةُ أَرض الغيبهْ ..
ثم صبيّ يمشي فوق الماء .
يصحبه شيخُ الشط .
نهض في الثالثة عقب صلاة العصر الموتى ، والتأموا بين الإطلال .
وأكاد التقط صوت ربيع يبكي في رأس الدربونةْ ، واري ظل رشيد الملكه يعدو ما بين (الطمة) و (الفلاحاتْ) وأمومة زنكوّ ينزلّن من تل الموت تباعاً ، واحدة إثر الأخرى،:

" حفصة ، فطومة ، صديقه ، فتحيه ، زكيه ، ملكه ، بطوشة ، ماهية ، حمزية ، حمدة، وهديه .

يرفلّن بثياب من ذهب وحرير ، النخل يمشي ،و الزيتون صفاً صفا ، فرحين بالوصلّ ،بين الآماد الغائبة والوقت القائم .

يلتئم الآتون عند محراب القلب.

وتقام في باحات أبي منصور الحلاج صلاة الغائب .

في الصف الأول ، تحت ظلال السدر الشهداء : سعد الراوي ، مزهر المشمش ، هادي عبد الجبار الطه ، ثمة يأتي الفتية من بوابات الشوق الأربع :

ينضم إلي الصف الموتى :

نوري شفيق ، صبري ، انعيم ، صلاح ،و زهير الحفصه .

و يجئ في آخرة الوقت (حجّي) مجيد .

-١١-

نلّج الطرقات الحانية القلبْ ، نلثم حجر العتبات المندرسات و نلوذ بأفياء مرابعنا الأولى ، نبحث عن حُجرات الجنه ..

-١٢-

الصمت البارد قانون التلّ الأحمرْ .

صبري يرقد في ظل شجر الكافورْ .

و ينام زهير ملء العين في بستان الكرخيّ ،

و اختار فتى الفحامة مزهرْ

الخلد الأبدي فأقام وراء الحاضرْ .

يرقب قافلة الصبية الشهداء أن تأتي بماء الورد و الشمع و الريحانْ .

-١٣-

غابت أحلامُ الدربونة تحت عمارات شارع حيفا السبعْ

و اقتلع (الجسرُ) حجرات البستان

لم يبق من دنيا الغبطهْ..

إلا الأطلال الخربهْ

وبقايا الشرفات المهجوره

و نخلة حفصةْ

-١٤-

إرتحل يا مولايّ هلال العيد ..
فانطفأت في قلب الإنسان الأنوار .
سأل الشيخ الكرخي : ما الخطب؟!..
و في أي الأصقاع النائية الموحشة راح الركب ؟!
قال الدرويش الآتي من أَقصي درب في الأرض :
البُحر: بلا شاطئ .
الوقت : أَبد .
الغربة : أزل.
الناعور : منفى
قال الشيخ :
لكن الشوق يا مولاي إيلام للقلب و عذاب للروح !
هتف الدرويش :
فلتأت عين العقلْ ،
و أنخْ عند نخلة (زنكّوْ) جملَ الصبرْ
فالصيرورة : (زمنُ) ، (أينُ) ، حركه .
تسري دوماً نحو الغد ...

- التوثيق

أولا – **المصادر** :

- عبد الرحمن منيف – أرض السواد – رواية – الموسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٩٩

- عزيز جاسم الحجية – بغداديات – سبعة اجزاء– طبعة الشؤون الثقافية الاولى بغداد

- عبود الشالجي – موسوعة الكنايات العامية البغدادية – ثلاثة اجزاء– بيروت ١٩٨٣

- الشيخ العلامة جلال الحنفي البغدادي – معجم اللغة البغدادية – الجزء الثاني – بغداد ١٩٦٧

- أنور عبد الحميد الناصري – سوق الجديد –ثلاثة اجزاء – بغداد ١٩٩٠– ١٩٩٨–٢٠٠٠

- عباس بغدادي – يغداد في العشرينيات – المؤسسة العربية للدراسات والنشر– بيروت– ١٩٩٩.

- عبد الكريم العلاف – بغداد القديمة – الدار العربية للموسوعات – بيروت ١٩٩٩

- عبد الستار الراوي – فردوس الكرخ – وزارة الثقافة – بغداد ٢٠٠١

ثانيا – اللقاءات :

- إبراهيم زيدان خلف الجنابي
- خالد نايف الحايف
- الراحل الحاج مجيد عبد الرزاق العبود
- عبد الامير السعدي
- مزهر رشيد الطرفة
- مليكة حمادي صالح النعمان
- جعفر السعدي : عميد آل مشكور
- عزالدين محمود الراوي
- نزار جميل المشمش
- الراحل الملا مولود المشهداني
- الراحل رشيد الطرفة
- باسل العاني
- الراحلة هدية عبد الجبار طه الراوي
- عامر جبوري العداي
- محمد حربي حسون الهويان الجبوري

المحتويات